

الأربعون
في
مكارم الأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأربعون في مكارم الأخلاق

«إن المؤمن ليدرك بحُسن خُلُقهِ درجة الصائم القائم» (صحيح أبي داود)

د. أمير علي الحداد

رمضان ١٤٤٧ - مارس ٢٠٢٦

الكويت

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضللَّ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

أما بعد: فهذه ورقات تتضمن أربعين من مكارم الأخلاق.. أوردتها جامعها بأسلوب حوارى بسيط، لتصل إلى عامة الناس.. بعد أن قدّم لها بثلاثة مواضيع لبيان أهميتها في دين الله عزَّ وجلَّ.

يقول الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - في «مكارم الأخلاق»:

الخلق: هو السجية والطبع، وهو كما يقول أهل العلم: صورة الإنسان الباطنة، والواجب على المسلم أن يتخلق بمكارم الأخلاق أي أطايبها، والكريم من كل شيء هو الطيب منه بحسب ذلك الشيء.

وقد قال النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» (صحيح الترغيب)، وأخبر النبي ﷺ أن من مقاصد بعثته إتمام محاسن الأخلاق، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (صحيح الجامع)، فالشرائع السابقة كلها تحثُّ على الأخلاق الفاضلة، ولكن الشريعة الكاملة جاء النبي ﷺ فيها تمام مكارم الأخلاق.

وكما يكون الخلق طبيعة، فإنه قد يكون كسباً.

والطبع بلا شك أحسن من التطبُّع، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء،

ومن حُرْم هذا - أي حُرْم الخُلق عن سبيل الطبع - فإنه يمكنه أن يناله عن سبيل التَطَبُّع بالممارسة ومجاهدة النفس.

وَحُسْن الخُلق كما يكون في معاملة الخَلق، يكون أيضاً في معاملة الخالق هذه ثلاثة أشياء عليها مدار حُسْن الخُلق مع الله تعالى.

١ - تلقي الأخبار بالتصديق: بحيث لا يقع عند الإنسان شك، أو تردد في تصديق خبر الله تبارك وتعالى.

٢ - أن يتلقَّى الإنسان أحكام الله بالقبول والتنفيذ والتطبيق فلا يرد شيئاً من أحكام الله.

٣ - تلقِّي أقدار الله تعالى بالرضا والصبر.

أما حُسْن الخُلق مع المخلوق فعَرَفَه بعضهم بأنه كَفُّ الأذى، وبذُلِّ النَّدى، وطلاقة الوجه. ويذكر ذلك عن الحسن البصري - رحمه الله. (انتهى)

إن العبد يسعى لنيل مكارم الأخلاق، لأنها من الدين ومما ينال به رضا الله والدرجات العُلا من الجنة، كما في الحديث عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»، قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارين، والمتشدقين، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون». (صحيح الترغيب)

وحتى لا يكون فتنة للناس بحُسن عبادته وسوء خلقه!!
والعبد يكتسب الأخلاق الحسنة ويتخلص من السيئة إذا أخلص النية
وأخذ بالأسباب التي منها:

سلامة العقيدة والدعاء والمجاهدة والمحاسبة، والتفكر في الآثار
المتربة على حُسن الخلق، والنظر في عواقب سوء الخلق والحذر من
اليأس من إصلاح النفس وعلو الهمة.

وكتاب الله جمع ما يحتاج إليه العبد من مكارم الأخلاق كما قالت أم
المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق النبي ﷺ: «كان
خُلُقُه القرآن» (صحيح الجامع).

أدعو الله تبارك وتعالى أن ينفع بهذا الكتاب قارئه وأن يثيب كاتبه وكل
من ساهم في طباعته وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم... وإني سائل
من اطلع عليه أن يدعو لكاتبه بالثبات على الحق في الدنيا، والمغفرة له
ولوالديه بعد الممات... ومن أراد أن يطبعه وينشره لوجه الله فله ذلك،
والحمد لله رب العالمين.

وكتبه: د. أمير الحداد - الكويت

رمضان ١٤٤٧ هـ - مارس ٢٠٢٦

البريد الإلكتروني: amir122@yahoo.com

مكارم الأخلاق (١)

- حديث النبي ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (السلسلة الصحيحة)، كأنما يحصر النبي ﷺ بعثته في إكمال أفضل الأخلاق، وهذا المنطق يستغله بعض من لا يريد الإلتزام بالعبادات، الصلاة والصيام والحج، يحتج بأن (الدين الأخلاق)!

كنت وصاحبي بانتظار الطائرة في رحلة قصيرة إلى لبنان بعد انقطاع استمر أكثر من خمس سنوات.

- هذا لا يريد أن يرى الحق، إنما يتبع هواه، ولا أضل ممن اتبع هواه، لا تنفع معه الحجة ولا المنطق ولا الواقع، وأظن أن الإعراض عن نقاشه خير.

- ولكن لنفرض أن أحدهم قالها عن جهل، ويريد معرفة الحق.

- نعم لقد بعث الله النبي ﷺ لإتمام مكارم الأخلاق وفي رواية (صالح الأخلاق)، وذلك أن الأخلاق أساس عظيم من أسس الشريعة، وإذا أردنا التوسع في المعنى، يمكن أن نقول: إن الأخلاق هي الدين، بمعنى التخلق مع الله، ومع الأنبياء ومع أوامر الله، هذا هو الدين، ولكن لتحدث عن الأخلاق بمعناها المعروف.

(الخلق)، بضم (الخاء) و(اللام)، الطبع والسجية، (ابن منظور)، وقيل (السلوك السائد) للإنسان، وقيل (حال للنفس راسخة، تصدر منها الأفعال من خير أو شر من غير حاجة إلى فكر وروية)، ويقال في مدح الشخص:

إنه (ذو خلق)، مما يدل على أن الغالب فيها هو (السلوك الحسن)! وقوله ﷺ: «لأتمم»، إما أن يتمم ما جاء به من سبقه من الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام-، أو ليتمم ما كان عليه العرب فيثبت ما كان من أخلاق حسنة، ويزيل ما كان من سيئ الأخلاق.

إنضم إلينا (أبو مساعد) ثالثنا في هذه الرحلة، تأخر لاضطراره أن يتأكد من حالة أحد مرضاه في المستشفى قبل السفر، أخذ حاجته من القهوة، واسترخى في مقعده.

- كنا نتحدث عن (مكارم الأخلاق).

- موضوع جميل يهمله كثير من الناس، حتى من يلتزم بالعبادات! هكذا كان تعليق صاحبنا لمجرد أن عرف موضوع حديثنا.

- نعم، يغفل كثير من الناس عن أهمية الأخلاق في دين الله، فكما أن العبد يدرك المنازل العليا في الجنة بحفظ كتاب الله، والجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الله، فإنه يستطيع أن يدرك الفردوس بحسن خلقه.

لم يخفِ صاحبي إعجابه بهذه العبارة.

- زدنا توضيحاً:

- في الحديث عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» (صحيح أبي داود) وحديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «أنا زعيم بيت في

ربض الجنة لمن ترك المرء وإن كان محققاً، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه» (صحيح أبي داود)، وماذا في أعلى الجنة؟ الفردوس، كما قال النبي ﷺ عن درجات الجنة «والفردوس أعلى الجنة وأوسطها» (صحيح الترمذي).

علّق (أبومساعد)، مستحسناً ما سمع:

- مع أنني أعرف هذه الأحاديث إلا إنها المرة الأولى التي أنتبه إلى هذا المعنى، حسن الخلق، سبيل لنيل الفردوس!

- نعم هي كذلك، والحديث الآخر عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون! قال: المتكبرون» (صحيح الترمذي).

- أحاديث جميلة.

- أشار صاحبي إلى الشاشة التي تظهر مواعيد الإقلاع مع البوابات.

- أمامنا ربع ساعة لبدء دخول البوابة.

- هذه الأحاديث وغيرها تبين أن العبد المؤمن ينبغي أن يبذل الجهد؛ ليحسن خلقه، مع الناس جميعاً، فلئن كان حسن الخلق لا ينفع المشرك، وتارك الصلاة، كذلك سوء الخلق يحبط أجر الأعمال الصالحة، وإن عظمت، وتعرفون حديث المفلس.

- هلا بحثت لنا عن نصه وتخريجه؟

- لك ذلك، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار» (مسلم).

- أعوذ بالله من محبطات الأعمال.

- نعم، هذا رجل سيئ الخلق، يصلي ويصوم ويزكي، كثير العبادات، تفنى حسناته بسبب سوء خلقه.

- لقد كان لنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة في كل جانب من جوانب حياته صلى الله عليه وسلم، ومن أهمها أخلاقه صلى الله عليه وسلم؛ فهو كما قال عنه رب العزة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (القلم)، وكان صلى الله عليه وسلم (خلقه القرآن)، كما وصفته أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها وعن أبيها- (المسند)، حتى قبل بعثته، كان (الصادق الأمين)، وبعد بعثته، (تمم مكارم الأخلاق) صلى الله عليه وسلم.

مكارم الأخلاق (٢)

في مطار بيروت، كانت الأمور طبيعية، أنهينا إجراءات الدخول، أخذنا حقائبنا، أنهى صاحبنا إجراءات تأجير المركبة في طريقنا إلى المنزل في (عجلتون)، كنا نتابع مناظر البلد، بيوتها، إعلاناتها، شرفات المنازل، لم يتغير شيء، كأنما توقف الزمن عندهم، منذ عشرين سنة، مع انتشار غطاء من الاكتئاب والحزن في سماء المدينة، رغم أن الطقس كان جميلاً، مع زخات خفيفة من المطر.

في المساء اجتمعنا على عشاء خفيف في (زيت وزعتر). تابعنا حديثنا عن (مكارم الأخلاق).

- لا شك أن حسن الخلق، ينفع العبد في دنياه وآخرته، فإن لم يكن مؤمناً بالله، بمعنى كان مشركاً، ولكن ذو خلق حسن، من الكرم والصدق والشجاعة والأمانة والمروءة وحسن التعامل، فإنه ينال جزاءه في الدنيا (بحسن الذكر)، و(تخليد الاسم)، أما في الآخرة فإن حسن الخلق لا ينفع مع الشرك بالله، كما في حديث عدي بن حاتم الطائي (مضرب المثل في الكرم)، وكان صحابياً مع رسول الله ﷺ: أتى النبي ﷺ فقال له: «يا رسول الله إن أبي كان ليصل القرابة ويحمل الكلّ ويطعم الطعام قال: هل أدرك الإسلام (هل أسلم؟) قال: لا، قال: إن أباك كان يحب الذكر (فناله)» وفي رواية الإمام أحمد «إن أباك طلب شيئاً فأصابه» (حسنه الأرئووط).

- وماذا عن حديث النبي ﷺ: «إن خلق الإسلام الحياء»؟

نعم هذا الحديث يرويه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 «إن لكل دين خلقاً وإن خلق الإسلام الحياء» (صحيح الجامع).

فالحياء رأس كل خلق حسن، ولا يأتي الحياء إلا بخير، ويكفي في الحياء هذا الحديث، فهو خلق الإسلام؛ ولذلك من فقد (الحياء) لا يتورع عن ارتكاب كل ذنب، كما في الحديث عن عقبه بن عامر رضي الله عنه:
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فافعل ما شئت» (البخاري) ففيه تهديد ووعيد (افعل ما شئت)!
 ومعنى (من كلام النبوة الأولى)، من كلام الأنبياء وما أتوا به من شرائع لم تنسخ وتتفق مع ما جاءت به شريعة الإسلام، وأن ما من نبي إلا وقد حث على الحياء.

وحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق» (صحيح المسند)، وفي رواية: «إن الله يبغض الفاحش المتفحش البذيء»،
 وحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله كريم يحب الكرم، ويحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها» (السلسلة الصحيحة)، يقول العلامة المناوي: أي: رديتها وحقيرها وفسادها، فمن تخلق بمكارم الأخلاق أحبه الله ومن كانت أخلاقه رديئة أبغضه الله!

وضع الشاب المكلف بخدمتنا الطلب، مناقيش زعتر وطبق من الخيار والطماطم وصفيحة جبن مع الزعتر، وإبريق شاي!

إن مكارم الأخلاق لها مكانة عظيمة في دين الله، وهكذا ينبغي أن

تكون عند كل مسلم، وعلى العبد أن يحافظ على ما وهبه الله من خلق حميد، ويكتسب ما ينقصه.

- وهل الأخلاق فطرية أم مكتسبة؟

قد تكون فطرية، وقد تكون مكتسبة، ولكنها من التكاليف التي يثاب عليها العبد ويحاسب عليها يوم القيامة، في الحديث عن الوازع بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: عندما قدمنا المدينة - وفد عبد القيس - مسلمين جعلنا نتبادر من رواحنا (نستعجل بالذهاب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) نسلم عليه ونقبل يده، إلا المنذر الأشج، أتى راحلته فلبس ثوبيه، ثم أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثياب حسنة، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن فيك خلتين، أو خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة، قال: يا رسول الله، أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: بل الله جبلك عليهما، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله» (صحيح أبي داود)؛ فالمسلم يبحث في أخلاقه، يثبت الحسن منها، ويتخلص من السيء، ويكتسب ما ينقصه، حتى يكون (أكمل ما يستطيع)، في الأخلاق الحسنة كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا» (صحيح الجامع).

والحديث الآخر: «خياركم أحاسنكم أخلاقا، الموطؤون أكنافا، وشراركم الثرثارون المتفيهقون المتشدقون» (صحيح الجامع).

سأل أبو مساعد:

(الموطؤون أكنافا)، ما معناها؟

- لغة (الكنف) هو جانب البهيمة و(دابة موطأة الكنف): أي سهلة الركوب، والمقصود أن المؤمن سهل لين سمح كما في حديث ابن مسعود قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار، وبمن تحرم عليه النار؟ على كل قريب هين سهل» (صحيح الترمذي).

وفي رواية: «حُرِّمَ على النار كل هين لين سهل قريب من الناس» (المسند - صحيح).

أكملنا الحديث ونحن نستمتع بأول وجبة لنا في لبنان!

- وفي الحديث عن أسامة بن شريك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قالوا: يا رسول الله ما خير ما أعطي العبد؟ قال: خلق حسن» (صحيح ابن ماجه).

وفي المقابل سوء الخلق يحبط العمل ويفسده، كما في حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وإن سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل» (السلسلة الصحيحة).

مكارم الأخلاق (٣)

- لا شك أن مكارم الأخلاق تُبلِّغ صاحبها المنازل العليا من الجنة، فما شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق، وأقرب المؤمنين منزلة من النبي (ﷺ) أحسنهم أخلاقاً؛ ولذلك وجب على العاقل أن يتعب نفسه لاكتساب مكارم الأخلاق ويتخلص من سيئها.

- وهل الأخلاق تكتسب؟

- دون شك؛ لذلك كانت سبباً في الفوز بالحسنات أو خسارتها، ودخول الجنة أو الحرمان منها.

كنت وصاحبي نعود أحياناً لنا اضطرُّ لدخول المستشفى ليلاً لألم مفاجئ في بطنه، علمنا فيما بعد أنه إلتهاب (الزائدة)، وقد خضع لعملية لاستئصالها فوراً.

- وهل يمكن أن نصنف الأخلاق كالعبادات، واجبات ونوافل؟

- ربما نستطيع أن نصنفها وفق الأحاديث، الأهم فما دونه، مثلاً: أحاديث النبي (ﷺ) التي تصف أخلاق المنافقين: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة فيهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر» (متفق عليه)، وفي الرواية الأخرى: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان» (متفق عليه).

فهذه أخلاق المنافقين ينبغي على المسلم أن يتخلق بأضدادها، الصدق والوفاء وحفظ العهد وأداء الأمانة والعدل.

- قبل أن نخوض في الأمور الشرعية، دعنا نمهد لذلك بمفاهيم لغوية، كيف عرّف أهل اللغة (الأخلاق)؟

- (الخلق) بضم الخاء، واللام أو سكونها، هو الطبع والسجية، وحقيقته أنه صورة الإنسان الباطنة! وذلك أن الخَلْقَ (بالفتح) صورته الظاهرة و(الخُلُق) بالضم، صورته الباطنة، وهي الأهم، قال الراغب الاصبهاني: «والخَلْقُ والخُلُقُ في الأصل واحد، كالشُّرب (تجرع الماء) والشرب (النَّصِيبُ مِنَ المَاءِ)، ولكن خص الخلق (بالفتح) بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخلق (بالضم) بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة. (مفردات ألفاظ القرآن).

وحيث أن الصورة الظاهرة لا يملك المرء تغييرها؛ فهي ما خلقه الله عليها، لن يحاسب عليها، أما الباطنة، يستطيع المرء تغييرها إن كانت سيئة ويزيدها إن كانت حسنة، فكانت مناط الثواب والعقاب؛ فالعبد مأمور بأن يتخلق بالأخلاق الحسنة؛ فيثاب عليها، ومأمور أن يترك سيئ الأخلاق فلا يعاقب عليها، فأصبحت من التكاليف الشرعية التي بينها الله -عز وجل- في الكتاب والسنة.

في الحديث: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (السلسلة الصحيحة)؛ فأصبحت الأخلاق الحسنة هي التي حسَّنها الشرع، والأخلاق السيئة هي التي قَبَّحها الشرع؛ فلا ينبغي لعبد أن يجتهد في تحسين شيء أو تقبيحه.

وصلنا المكان الذي نريد، سألتنا عن الجناح والغرفة، لم يكن صاحبنا قد تعافى من آلام العملية، كان نائماً، حملنا ابنه سلامنا ودعأنا له، وعدنا إلى مركبتنا.

- هل تذكر عدد الملائكة الذين يصحبون من يعود مريضاً؟

- كلا، ولن أخمّن، ذكرني به.

- الحديث عن علي - رضي الله عنه - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا عاد الرجل أخاه المسلم، مشى في خرفة الجنة حتى يجلس، فإذا جلس غمرته الرحمة، فإذا كان غدوةً صلّى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإذا كان مساءً صلّى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح» (السلسلة الصحيحة) (خُرفة الجنة - جناها وثمرها).

- أسأل الله أن ننال هذا الأجر العظيم! لنرجع إلى موضوعنا.

- نعم كنا نتكلم عن تعريف (الأخلاق) لغة، قال الطاهر بن عاشور: «خلق بضمّتين، السجية المتمكنة في النفس باعثة على عمل يناسبها من خير أو شر، فيقال: خلق حسن، ويقال في ضده خلق ذميم، فإذا أطلق عن التقييد انصرف إلى الخلق الحسن والخلق في الاصطلاح: ملكة (بالفتح)، أي كيفية راسخة في النفس متمكنة في الفكر تصدر بها عن النفس أفعال صاحبها دون تأمل».

- أعتقد أن المهم في الموضوع: أن يعلم العبد أن الأخلاق تؤخذ

من القرآن والسنة، ومن أسس شريعة الله، أن يحاسب العبد على تلك الأخلاق، فيثاب بالحسنات، أو يعاقب بالسيئات.

- نعم هي كذلك، وثوابها عظيم عند الله - عز وجل - كما أن سيئها عقابه شديد.

- وكيف نرتبها من حيث الواجب منها والنافلة؟

- كما قلنا سابقاً، الواجب ترك الأسوأ منها، وهي أخلاق المنافقين، الكذب والغدر والخيانة وفي كتب الأخلاق يذكر العلماء مجموعة منها: دون ترتيب: «مكارم الأخلاق عشرة: صدق الحديث، وصدق البأس، وحفظ اللسان، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنائع، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والإحسان إلى الجار، وحسن الصحبة، وإقراء الضيف، ورأسهن الحياء».

وأظن أن تتبع الأحاديث يغني عن كل ترتيب، فكما قلنا: إن أسوأها هي أخلاق المنافقين، وأفضلها ما ورد في حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ: «أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققاً، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه» (صحيح أبي داود) و(حسن) خلقه أي أتعب نفسه في نيل الأخلاق الحسنة، كأنه هو الذي (حسن) خلقه.

صدق الحديث

هل يمكن أن نصنف الأخلاق إلى: فرائض وواجبات وسنن؟

- لم أطلع على كتاب يصنفها بهذه الطريقة، ولكن لا شك أن بعضها أهم من بعض؛ فالصدق والأمانة أهم من التغافل وقبول الأعداء، وكلها مهم للمسلم.

والرسول ﷺ ذكر لنا بعض أخلاق المنافقين، حتى نحرض أشد الحرص ألا نتخلق بها، كما في الحديث، «آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»، وفي رواية: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» (متفق عليه).

وفي الحديث الآخر: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُوْتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ». (متفق عليه)؛ فهذه الأخلاق أول ما ينبغي على المسلم ألا تكون فيه.

صاحبي كثير السفر إلى الشارقة، إبنه وابنته يدرسان هناك، البنت صيدلة والولد طب أسنان، استأجر لهما شقة في منطقة مميزة، يذهب كل شهر للاطمئنان عليهما وللراحة والاستجمام! يدعوني لمرافقته؛ اعتاد النزول في فندق مطل على (بحيرة خالد).

- إن اكتساب الأخلاق الحميدة والتخلص من الأخلاق الذميمة

من أفضل العبادات التي ينبغي أن يحرص عليها المسلم؛ فهي أهم من نوافل العبادات كالصلاة والصيام والصدقة والعمرة، ومع ذلك لا ينتبه لها كثير من الناس.

- دعنا نفصل في خلق (صدق الحديث).

- ونحن نتكلم هنا عن صدق الحديث مع البشر، وإلا فصدق القلب ركن وأساس للدخول في الإسلام؛ فمن كان كاذباً في القلب فهو منافق نفاقاً أكبر: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ (المنافقون).

وهؤلاء - والعياذ بالله - في الدرك الأسفل من النار!

صدق الحديث: هو أن يتحرى العبد ألا يقول إلا حقاً، ولا سيما إذا ترتب على ذلك بيان حق وإثبات ملك أو ضياعه، كما في الشهادة عند القاضي؛ وذلك أن الكذب في الشهادة يسمى (زوراً)، كما في حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟! قلنا بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس؛ فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور، ألا وقول الزور وشهادة الزور! فما زال يقولها حتى قلت: لا يسكت» (البخاري)، وفي رواية: «حتى قلنا: ليته سكت»، من شدة ما حذر منها.

فالمؤمن يتحرى الصدق في كل حديثه، لا سيما إذا كان ينقل حديثاً

عن غيره أو واقعة شهدها؛ حتى لا يترتب على ما يقول مفسدة. و«التحلي بالصدق» يُكتسب بالممارسة، والمران، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب! فإنه يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذاباً» (متفق عليه واللفظ من صحيح الترمذي). المراد هنا (يتحرى الصدق) يجتهد أن يكون دقيقاً صادقاً في نقله للأحداث والأقوال، لا يزيد ولا ينقص، ومن لم يكن دقيقاً فلا ينبغي أن ينقل كلام غيره! ففي ذلك مفسدة عظيمة.

قاطعني صاحبي.

- صدقت، لدي أخت -هداها الله- رغم صفاء نيتها، ونقاء سريرتها إلا أن نقلها للأحداث غير دقيق؛ فتسبب مشكلات بين الإخوان، وأحياناً بين الأزواج، دون أن تقصد، حتى ثبت عندنا ألا نأخذ كلامها أنه حق إلا بعد التثبت!

- إن اكتساب الصدق لا يتحقق إلا بالممارسة، حتى يصبح الصدق سجية وخلقاً، فلا يكذب وإن كان مازحاً!

كنا بانتظار وصول المطعم العائم، قارب يقدم وجبة العشاء مع رحلة هادئة في البحيرة.

بحث صاحبي في هاتفه.

- اسمع هذا الحديث عن الحسن بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنهما- قال رسول الله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك؛ فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة». (صحيح الترمذي)

- كم كان عمر الحسن بن علي، عندما توفي النبي ﷺ؟

- كان في الثامنة، مما يدلُّ على فطنته وحذقه وضبطه للحديث!

- نعم، ومن الأمور التي ينبغي أن يعود العبد نفسه عليها، ألا يتحدث بكل ما يسمع، فإنه عرضة أن يقع في الخطأ، في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما يسمع» (مسلم)؛ وذلك أنه وإن كان صادقاً فيما يحدث به، قد يكون مصدره كاذباً، أو غير دقيق في نقله، فلا عذر له في نقل كلام خطأ من أصله، كما في حديث أبي قلابة عبدالله بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «بئس مطية الرجل زعموا» (صحيح أبي داود)، فهو شريك في هذه الكذبة لعدم تثبته فيما نقل!

- إن الحديث عن خلق (صدق اللسان) لا ينتهي، ولكنه خلق يجب على المؤمن اكتسابه، ذلك أن الكذب -وإن لم يكن عن قصد- خلق سيئ، يحبط العمل ويمحو الأجر.

- دعني أنقل لك بعض ما جمعت عن الصدق.

قسم الله -سبحانه- الناس إلى صادق ومنافق؛ فقال: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ (الأحزاب)، والإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب؛ فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر، وأخبر - سبحانه - أنه يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذاب الله إلا صدقه، قال - تعالى -: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ (المائدة).

وكان لأبي بكر الصديق - رضى الله عنه وأرضاه -: ذروة سنام الصديقية سُمِّي (الصديق) على الإطلاق، والصديق أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق، فأعلى مراتب الصدق، مرتبة الصديقية، وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ مع كمال الإخلاص.

وقد أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ: أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق فقال: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ (الإسراء)، وأخبر عن خليله إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أنه سأله أنه يهب له لسان صدق في الآخرين فقال: ﴿ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ (الشعراء)، وبشر عباده فقال - تعالى -: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ (يونس)، وقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْنَدٍ ﴿٥٥﴾ (القمر)؛ فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

أداء الأمانة

- إن مما ينبغي أن يكون المؤمن حريصاً عليه - بعد أداء الواجبات - أن يتحلى بمكارم الأخلاق، وأولها ألا يتصف بأخلاق الكفار والمنافقين.

- هل لنا بمزيد بيان لهذه العبارة الأخيرة؟

- نعم، في كتاب الله آيات تصف الكافرين، وآيات تصف المنافقين، وآيات تصف اليهود، يريد الله منا أن نتجنب هذه الصفات والأخلاق والتصرفات، مثلاً يقول الله - تعالى -:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَاقْتُلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ (آل عمران).

ويقول - سبحانه -: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴿٦١﴾﴾ (الأحزاب)، ويقول - تعالى -: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿١٤٢﴾﴾ (النساء).

وفي الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان» (متفق عليه)، وفي زيادة (مسلم): «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

فالمؤمن يكره هذه الفئات من البشر، ولا يريد أن يصنف ضمنها، أو أن ينتمي لها بأي شكل من الأشكال؛ لذا يحرص ألا يخون الأمانة، تنفيذاً

لأمر الله -تعالى- للمؤمنين بأداء الأمانات، فهو بين اتباع أمر الله -عز وجل- ورسوله ﷺ، وبين البعد عن صفات المنافقين، كل ذلك يدفعه إلى أداء الأمانة كما يحب ربنا ويرضى.

كنت وصاحبي في جلسة هادئة بعد صلاة المغرب، وقد خلا المسجد من المصلين، جلسنا في المكتبة ننتظر صلاة العشاء.

- هل تذكر حديث «رفع الأمانة؟».

- لا أحفظه ولكن أستطيع أن أستخرجه في هاتفي، وبالفعل وجدت الحديث، عن حذيفة بن اليمان، قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة، وحدثنا عن رفعها قال: ينام الرجل النوم فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوُكْت، ثم ينام النوم فتقبض فيبقى فيها أثرها مثل أثر المَجَل، كجمر دحرجته على رجلك فنَفَط، فتراه منتبراً وليس فيه شيء»، ثم أخذ حصاة فدحرجه على رجله «فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده! وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان» (متفق عليه).

- هذا الحديث يحتاج إلى شرح:

- أنفق معك، دعنا نبحث في «المكتبة الشاملة» عن شرح هذا الحديث:

قوله: «جذر» وهو أصل الشيء و«الوكت» الأثر اليسير و«المجل» تنفط في اليد ونحوها من أثر عمل وغيره. قوله: «منتبراً»: مرتفعاً.

يعني: أن الأمانة نزلت في القلوب بالفطرة، ثم نزل القرآن شفاء من الجهل، نور على نور ولا تقبض الأمانة إلا بسوء العمل. حين يضعف الدين وتغلب الشهوات وتسيطر المادية، فإن الأمانة ترتفع من النفوس، كما يرتفع النور من القلوب، ويحل محل هذا النور الإلهي الران والغشاوة، وينكت في القلب نكتة سوداء، وستقل الأمانة، حتى لا يكاد الأمين يوجد، وحتى تسري بذكره الركبان.

قال صاحب التحرير معنى الحديث: إن الأمانة تزول عن القلوب شيئاً فشيئاً، فإذا زال أول جزء منها زال نورها، وخلفته ظلمة كـ(الوكت)، وهو اعتراض لون مخالف للون الذي قبله؛ فإذا زال شيء آخر صار كـ(المجل)، وهو أثر محكم لا يكاد يزول إلا بعد مدة، وهذه الظلمة فوق التي قبلها، ثم شبه زوال ذلك النور بعد وقوعه في القلب وخروجه بعد استقراره فيه واعتقاب الظلمة إياه بجمر، يدرجه على رجله حتى يؤثر فيها، ثم يزول الجمر، ويبقى التنفط، وأخذ الحصى ودرجته إياه، أراد به زيادة البيان وإيضاح المذكور. وهذا المعنى ذكره النووي في شرح صحيح مسلم.

قال الله -تعالى-: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب).

قال صاحب التحرير الأمانة المذكورة في الحديث هي الأمانة المذكورة في الآية، وهي عين الإيمان، فإن استمكنت في القلب قام بأداء ما أمر به، واجتنب ما نهى عنه.

وقال ابن التين: الأمانة كل ما يخفى ولا يعلمه إلا الله من المكلف، وعن ابن عباس: هي الفرائض التي أمروا بها ونهوا عنها، وقيل: هي الطاعة، وقيل: هي التكليف.

فالأمانة في قول جميعهم: الطاعة والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب وبتضييعها العقاب.

وما الأمانة في الأموال إلا جزئية من جزئيات الأمانة في معناها الشرعي العام.

ومن علامات الساعة رفع الأمانة بين الأفراد، وإهدارهم حقوق بعضهم بعضاً، وقد ورد في هذا الصنف قوله ﷺ: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» قيل: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» (البخاري)، وفي حديث حذيفة يربط الأمانة بقوة الإيمان؛ فحيث نزل الإيمان في القلوب وثبت في النفوس، واستوثق بقراءة القرآن والتفقه فيه، ورسخ بالسنة والعمل بها تحققت الأمانة، وتمكنت، وأصبح الدين مانعاً من الخيانة، وحاتلاً بين شهوات النفس والشيطان وبين حقوق الآخرين.

الوفاء بالعهد

- ثالث صفة للمنافقين في الحديث: «إِذَا حَدَّثَ كَذِبًا، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ» (متفق عليه)، إخلاف الوعد، عن قصد وسبق نية!

- ولماذا يعدُّ، إذا كان ينوي ألا يفني؟

- لأنه منافق! هذا الصنف من البشر الذي توعدّه الله بالدرك الأسفل من النار: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (النساء). وبالطبع هم المنافقون نفاقاً اعتقادياً، آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم! هم أحقر خلق الله، وأشدّهم على دين الله؛ لذا يحرص المؤمن الصادق ألا تكون فيه أي صفة من صفاتهم فضلاً عن أخلاقهم وأعمالهم.

صاحبي حساس جداً، عاطفي، يتأثر بسرعة، سلماً وإيجاباً.

هاتفني على غير العادة قبل المغرب بساعة تقريبا، استأذن أن يزورني في مكاننا المعتاد (مكتبتي)، وافقت دون تردد فهو من خاصّة الإخوان. وجدته مهموماً، مكتئباً، حزيناً.

رحّبت به، كان يريد أن يتحدث وأسمع له.

- تعرف فلان، لقد وعدني بكذا وكذا، منذ أكثر من عام، وهو يماطل واليوم صدمني بأنه لن يفني بما وعد!

تركت صاحبي يقول كل ما عنده، فلما سكت اقتربت منه، وضعت يدي على منكبه.

- يا أبا أحمد، لا تهتم كثيراً، الهم والحزن يُذهبان العافية، وكثير من الناس -أيامنا هذه- يُكثر الوعود ولا يفي بها، مع أن إخلاف الوعد من صفات المنافقين، والوفاء بالعهد من مكارم الأخلاق، هوّن عليك، ولا تتوقع من الناس كل ما تأمل فيهم.

رفع رأسه وقال: - ألم يأمرنا الله - عز وجل -: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة: ١)، ألم يقل - سبحانه -: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَا لَيْسَ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٣٤) (الإسراء)، ألم يقل - سبحانه -: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) (الصف).

- بلى، كل ذلك معلوم والأحاديث في ذلك كثيرة، ولكن قليلاً من الناس من يعمل بها، فلا تجعل الهمّ يثقل كاهلك.

دعني أقرأ لك شيئاً عن الوفاء بالعهد، في صحيح أبي داود عن سليم بن عامر (رجل من حمير) قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم، حتى إذا انقضى العهد غزاهم؛ فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدر؛ فنظروا فإذا هو عمرو بن عبسة؛ فأرسل إليه معاوية فسأله: فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يشدّ عقدة ولا يحلّها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء»، بمعنى أن ينقضي العهد ويفي به، أو يخبرهم بانتهاء العهد والاتفاق بينهما، وهل تعرف قصة (مواعيد عرقوب)؟

ابتسم صاحبي، وقال: أخبرني ما قصتها؟

- كان عُرقوب رجلاً من العماليق، فأتاه أخ له يسأل شيئاً فقال له عرقوب: إذا أَطْلَعَ نخلي، فلما أطلع أتاه، فقال إذا أبلح، فلما أبلح أتاه، فقال: إذا أرطب، فلما أرطب أتاه، فقال: إذا أتمر، فلما أتمر جَدّه ولم يعطه شيئاً، فضرب به العرب المثل في خلف الوعد، وقيل: عرقوب جبل مكلل دائماً بالسحاب ولا يمطر شيئاً.. أراحنتني ابتسامه صاحبي، تابعت الحديث:

- وفي كتاب (الكبائر) ذكر (الكبيرة الثالثة والخمسون): عدم الوفاء بالعهد ولا شك أن المرء قد يعد بشيء ثم «يعجز» عن الوفاء به فهذا له عذر، فقد جاء في حديث زيد بن أرقم عن النبي ﷺ قال: «إذا وعد الرجل أخاه ومن نيته أن يفِي له فلم يف ولم يجئ للميعاد فلا إثم عليه» (رواه أبو داود والترمذي وضعفه الألباني). الشاهد أن صفة المنافق تبييت النية بإخلاف الوعد فهذا خلقه وديدنه، وهؤلاء تجنّب التعامل معهم.

- وماذا عن حديث: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة»؟

- أحسنت يا أبا أحمد، هذا الحديث عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «لكل غادرٍ لواء يوم القيامة يعرف به» (متفق عليه)، وفي رواية الإمام أحمد: «لكل غادرٍ لواء يوم القيامة يعرف به عند إسته» وفي زيادة «بقدر غدوته»؛ فهذا يفتضح يوم القيامة أشنع فضيحة، ويعرف الناس جميعاً أنه كان يغدر العهد، وينقض المواثيق، ويخون المواعيد، وما أشدها من فضيحة على رؤوس الأشهاد يوم القيامة!

ولما أسرت قريش حذيفة بن اليمان وأباه - رضي الله عنهما - أطلقوهما وعاهدوهم ألا يقاتلهم مع رسول الله ﷺ، وكانوا خارجين إلى بدر فقال رسول الله ﷺ: «انصرفا نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم» (الصحيحة)، وثبت عنه أنه قال لأبي رافع وقد أرسلته إليه قريش فأراد المقام عنده وأنه لا يرجع إليهم فقال: «إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد، ولكن ارجع إلى قومك فإن كان في نفسك الذي فيها الآن فارجع». وثبت عنه أنه رد إليهم أبا جندل للعهد الذي كان بينه وبينهم أن يرد إليهم من جاء منهم مسلماً، ولم يرد النساء، جاءت سبيعة الأسلمية مسلمة فخرج زوجها في طلبها فأنزل الله - عز وجل -: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (المتحنة)، فاستحلفها رسول الله ﷺ أنه لم يخرجها إلا الرغبة في الإسلام، وأنها لم تخرج لحدث أحدثته في قومها، ولا بغضاً لزوجها؛ فحلفت فأعطى رسول الله ﷺ زوجها مهرها ولم يردها عليه فهذا حكمه الموافق لحكم الله.

الحياء

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل دين خُلُقاً وإن خلق الإسلام الحياء» (صحيح ابن ماجه)، وفي زيادة عن ابن عبد البر برواية معاذ بن جبل: «من لا حياء له لا دين له».

- هذا الخلق العظيم الذي كاد أن ينعدم أيامنا هذه، مع اتخاذ وسائل التواصل الاجتماعي لجني الأموال وتحقيق الثروات، ولاسيما عند النساء، نسأل الله العافية.

كان صاحبي يعبر عن استيائه من صعوبة السيطرة على الأحفاد وانجرافهم وراء ثقافة لا تمت إلى الإسلام بصلة.

- تبقى ثوابت الدين هي الأصلح، وإن كثر الخبيث وانتشر، فإنه زيد: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (الرعد)، (الحياء) خلق هذا الدين الكامل الذي اختاره الله -تعالى- لنا وبعث به محمدا ﷺ، و(الحياء) رأس الفضائل، من تركه ترك خيراً كثيراً، كما في حديث الصحيحين: «الحياء لا يأتي إلا بخير»، وعند مسلم «الحياء خير كله» في طريقنا لأداء صلاة العصر في المقبرة.

- يقول ابن القيم -رحمه الله- في مدارج السالكين: «حياة القلوب يكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح؛ ولهذا كان خلق الحياء مشتقاً من الحياة إسماءً وحقيقة؛ فأكمل الناس حياة أكملهم حياء، ونقصان حياء المرء من نقصان حياته؛ فإن الروح إذا ماتت لم تحس بما

يؤلمها من القبائح فلا تستحيي منها...»، ويقول في (مفتاح دار السعادة):
«ثم تأمل هذا الخلق الذي خص الله به الإنسان دون الحيوان، وهو خلق
الحياء الذي هو أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً وأكثرها نفعاً، بل هو
خاصة الإنسانية! فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم
وصورتهم الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء».

- صدق والله ابن القيم، وكما في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إن لم تستح
فاصنع ما شئت» (البخاري)، والحياء من الإيمان، كما في الحديث:
«الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى
عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» (صحيح الترغيب)؛ بل عند الإمام
أحمد: «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة».

استدرك علي صاحبي:

- الحديث عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على
رجل من الأنصار يعظ أخاه في الحياء فقال له صلى الله عليه وسلم: «دعه فإن الحياء من
الإيمان» (متفق عليه)، والحديث الآخر: «الحياء من الإيمان والإيمان في
الجنة والبذاء من الجفاء والجفاء في النار» (السلسلة الصحيحة).

كان الطقس حاراً، جافاً، ولكننا إلتزمنا بالذهاب لاتباع جنازة أحد رواد
المسجد، وأداء أحد حقوقه علينا!

- المشكلة أن العامة لا يفرقون بين الخجل والحياء؛ فالأول منقصة، والثاني منقبة، الحياء يبعث صاحبه على اجتناب القبيح ويمنع التقصير في حق ذي الحق، وقيل الحياء ضد الوقاحة ولا شك أنه خلق يوجد مع الفطرة السليمة، من فقده يفقد المروءة، وعز النفس، والنخوة، بل ويفقد من دينه على قدر ما يفقد من الحياء!

دعني أقرأ لك ما تيسر في الشبكة العنكبوتية العالمية عن الحياء: الحياء من صفات الرب - سبحانه-، قال النبي ﷺ: «إن ربكم حيي كريم، يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه، فيردهما صفراً، أو خائبتين» (صحيح - رواه ابن ماجه).

قال ابن القيم - رحمه الله-: «وأما حياء الرب -تعالى- من عبده فنوع آخر لا تدركه الأفهام، ولا تكيفه العقول؛ فإنه حياء كرم وبر وجود؛ فإنه -تبارك وتعالى- - حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً، ويستحي أن يعذب ذا شبيهة شابت في الإسلام». والحياء من خلق الملائكة قال النبي ﷺ في عثمان رضي الله عنه: «ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة؟» (رواه مسلم).

والحياء زينة الأخلاق لقول النبي ﷺ: «ما كان الفحش في شيء إلا شأنه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه» (صحيح - رواه الترمذي وابن ماجه).

وفي بيان التطبيق العملي للحياء قال النبي ﷺ: «استحيوا من الله حق

الحياء». قالوا: إنا لنستحيي والحمد لله. قال: «ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء» (حسن - رواه الترمذي).

وعن سعيد بن يزيد الأزدي؛ أنه قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «أوصيك أن تستحيي من الله -عز وجل-؛ كما تستحيي من الرجل الصالح من قومك». (صحيح - رواه أحمد). ومن الحياء ستر العورات لقول النبي ﷺ: «إن الله -عز وجل- حَيِّي سَتِير، يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر» (صحيح) استوقفني صاحبي:

- هذه، هذه التي تخلى عنها الناس لأجل المال والشهرة، لا يسترون عورة، ولا خصوصية، ولا فاحش الكلام. وماذا عن شرح قوله ﷺ: «أن تستحيي من الله كما تستحيي من الرجل الصالح...» (الحديث).

إليك شرحه:

قال ابن جرير: هذا أبلغ موعظة وأبين دلالة بأوجز إيجاز وأوضح بيان؛ إذ لا أحد من الفسقة إلا وهو يستحيي من عمل القبيح أمام أعين أهل الصلاح وذوي الهيئات والفضل أن يراه وهو فاعله، والله مطلع على جميع أفعال خلقه؛ فالعبد إذا استحيا من ربه استحياءه من رجل صالح من قومه، تجنب جميع المعاصي الظاهرة والباطنة، فيا لها من وصية ما أبلغها وموعظة ما أجمعها!، ولذلك لا يستحيي من الحيوان ولا من الأطفال ولا

من الذين لا يميزون، ويستحيي من العالم أكثر مما يستحيي من الجاهل،
ومن الجماعة أكثر ما يستحيي من الواحد، والذين يستحي منهم الإنسان
ثلاثة: البشر ثم نفسه ثم الله -تعالى-، ومن استحيا من الناس ولم يستح
من نفسه، فنفسه عنده أخس من غيره، ومن استحيا منها ولم يستح من الله؛
فلعدم معرفته بالله؛ ففي ضمن الحديث حث على معرفة الله -تعالى-.



الصبر

- لا يمكن أن تستقيم حياة أي فرد دون (الصبر)، هذا الخلق يحتاجه المسلم والكافر، التقوي والعاصي، إنه عمل قلبي وخلق أساسي، فلا حياة لمن لا صبر له!

- وهل يفهم الكفار معنى الصبر؟

- ربما يضعونه في إطار تجاوز النكبات والمصائب، ولكن المسلم يعلم أنه (عبادة) عظيمة، أجرها لا حدود له، كما قال -تعالى-: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر).

إن العبد يحتاج إلى الصبر في جميع أحواله، وتزداد هذه الحاجة حال المصيبة، يحتاج العبد الصبر لأداء الطاعات، وترك المنكرات، والتعامل مع البشر، والدعوة إلى الله، وتقلبات الدنيا، فإذا كان ملازماً للصبر، متخلقاً به، وجدته معه حال المصيبة الكبرى (مصيبة الموت)!

كنت وصاحبي آيبين من رحلة قصيرة إلى (رأس الخيمة) نشارك أختنا توفي والده، استغربنا كثرة بكائه عند القبر!
- أظن أن (أبا ناصر) كان متعلقاً جداً بوالده.

- نعم كان كذلك، فقد لازمه في السنوات الخمس الأخيرة، لدرجة أنه ترك بيته وسكن مع والده، ونقل مركز عمله من الشارقة إلى رأس الخيمة؛

ليكون بجانب والده، لا يكاد يفارقه؛ بل ويعتني بكل احتياجاته من أكل وشرب وتغيير ملابس وحتى قضاء الحاجة والاستحمام.

- جزاه الله خيراً، نعم الولد! وأما بكاؤه فلا أظن أن فيه شيئاً مخالفاً للشرع؛ فهو لم يصرخ ولم يشق جيباً ولم يلطم خدّاً.

- ما أكثر أنواع الصبر التي ذكرت في كتاب الله؟!

- أظنه الصبر في الدعوة إلى الله -تعالى-، والأذى الذي يلحق المرء إذا هو سلك هذا الدرب؛ فقد أمر الله الرسول ﷺ بالصبر، كما قال -تعالى-: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، وقال - سبحانه -: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ (١٣٠ طه). وورد الصبر أكثر من مائة مرة في كتاب الله، أمراً وبياناً لحسن العاقبة، وتبشيراً بالأجر، ووعداً بحسن الجزاء في الآخرة!

على غير العادة كانت رحلتنا جواً، وذلك لضيق الوقت؛ حيث بلغنا الخبر ليلاً فحجزنا أول طائرة في الصباح الباكر؛ لندرك الجنازة. قدم لنا المضيف طبق الفاكهة، وقنينة الماء.

- ماذا قال الشافعي في الصبر؟

- تقصد قوله عن سورة العصر؟

- نعم.

- قال -رحمه الله-: «لو لم ينزل إلى الناس إلهي لكفتهم»، والمعنى لكفتهم في موضوع الصبر، لا في الشريعة جميعها، وذلك أن هذه السورة وصفت جميع البشر بالخسران إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والمرء يحتاج إلى الصبر في الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق.

ومن الأحاديث التي لم أكن أعرفها، حديث معقل بن يسار - رضي الله عنه -
 - أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الإيمان: الصبر والسماحة» (السلسلة الصحيحة)، في شرح هذا الحديث أن الإيمان إذا أطلق يراد به الدين كله، يحتاج العبد إلى الصبر فيما يتعلق بالله -عز وجل-، والسماحة فيما يتعلق بالخلق. والحديث الآخر تعرفه، عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال ﷺ: «الذي يخالط الناس فيؤذونه فيصبر على أذاهم، أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» (صحيح الجامع).

- دعني أقرأ لك شيئاً مما خزنته في هاتفي من كتب ابن القيم. يقول -رحمه الله- في كتابه (الوابل الصيب) باب (السعادة في ثلاث: شكر النعمة والصبر على البلاء والاستغفار من الذنب):

محن من الله -تعالى- يبتلي بها العبد؛ ففرضه فيها (الصبر) والتسلي، والصبر حبس النفس عن التسخط بالمقدور، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن المعصية، كاللطم وشق الثياب وترف الشعر ونحوه؛ فمدار الصبر هذه الأركان الثلاثة؛ فإذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنة

في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوباً، فإن الله - سبحانه وتعالى - لم يبتله ليهلكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته؛ فإن لله - تعالى - على العبد عبودية الضراء، وله عبودية عليه فيما يكره، كما له عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره تتفاوت فيه مراتب العباد، وبحسبه كانت منازلهم عند الله - تعالى -.

- كلام جميل، سؤال خطر على بالي للتو، هل الصبر (صفة أم خلق)؟
أجبتُه بابتسامة:

- هذا سؤال شكلي؛ لأن الصبر درجات ينبغي أن يرتقي العبد فيها ليكتسب لقب (صابر وصبور)، كما أخبر الله - عز وجل - عن عباده المتقين: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ۝١٧﴾ (آل عمران). ومن تصبر، صبره الله، فمن لم يكن لديه هذا الخلق، فعليه أن يكتسبه باتباع أوامر الله - تعالى -.

- هل تعلم أن لابن القيم - رحمه الله - كتابا بعنوان: (عدة الصابرين)؟
- نعم ولكن لم أطلع عليه.

- دعني أقرأ لك شيئاً من مقدمته:

«أما بعد فإن الله - سبحانه - جعل الصبر جواداً لا يكبو وصارماً لا

ينبو، وجنداً لا يهزم وحصناً حصيناً لا يهدم ولا يثلم؛ فهو والنصر أخوان شقيقان؛ فالنصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، والعسر مع اليسر، وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدة ولا عدد، ومحلّه من الظفر كمحل الرأس من الجسد، ولقد ضمن الوفي الصادق لأهله في محكم الكتاب أنه يوفيهم أجرهم بغير حساب، وأخبره أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتح المبين؛ فقال -تعالى-: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾؛ فظفر الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة، وفازوا بها بنعمة الباطنة والظاهرة، وجعل سبحانه -الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين فقال -تعالى- ويقول: اهتدى المهتدون ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة).

وأخبر أن الصبر خير لأهله، مؤكداً باليمين؛ فقال -تعالى-: ﴿وَلَيْنَ صَبْرٌ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (النحل)، وأخبر أن مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط؛ فقال -تعالى-: ﴿وَإِن تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (آل عمران).

الرجوع إلى الحق

- قليل من الناس من يتراجع عن موقفه، إن كانت خطأ، حتى بعد أن تقام عليه الحجة البيّنة، ويعد ذلك نوعاً من (الضعف)، الذي لا يرضاه لنفسه.

- بل هو (الكبر)، والعياذ بالله، بصريح حديث النبي ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»، عن ابن مسعود (رواه مسلم). لو أقسم المسلم على أمر ورأى خيراً منه، يرجع عن قسمه كما في الحديث المتفق عليه: «وإذا حلفت على يمين فرأيتَ غيرها خيراً منها، فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير». هكذا هو هدي نبينا ﷺ وشريعتنا، (الرجوع إلى الحق، وقبوله، والعمل بمقتضاه).

- مع الأسف، يغفل عن هذا من يأخذ الدين تقليداً، وعادة دون علم وتربية وفق شريعة الله - تعالى - .

كنت وصاحبي نتحاور بعد أن أخبرني أن أحد معارفه حلف ألا يجتمع مع إخوانه، ولا يدخل بيتهم؛ لأن والدته تنازلت عن منزلها لأصغر الإخوان، وأتمت نقل ملكيته قبل وفاتها!

إن المرء قد يجانب الحق جهلاً، فإذا ذكّر وعلم رجع، ولكن من يترك الحق كبراً، لا يرجع وإن ذكر، تعرف حديث النبي ﷺ في صحيح مسلم عن ذاك الرجل الذي أكل بشماله عند النبي ﷺ فقال له: «كُلْ بيمينك»؛ فقال الرجل: لا أستطيع (قالها تكبراً) فقال له النبي ﷺ: «لا استطعت»، فما رفعها إلى فيه (فمه)، شلت يده.

- أعوذ بالله من التماذي في الباطل والإعراض عن الحق، كما قال -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (النمل)، هذا العناد، أدى بهم إلى الكفر، ثم الخلود في جهنم والعياذ بالله. هل حاولت التواصل مع ذاك الذي قاطع إخوانه؟!

- نعم، والحادثة مضى عليها أكثر من عام كامل، وهو مُصّر على موقفه، يقول: «لن أكسر كلمتي!» مع أنه لا يترك صلاة، ولا تفوته جماعة!

- عسى الله أن يهديه، ويشرح صدره للحق، والرجوع إليه، فإن الإصرار على الباطل، خلق سيئ يذهب الحسنات، ويبعد المرء عن طاعة الله، في الحديث عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - قال رسول الله ﷺ: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» (متفق عليه)، وهنا تحضرني خاطرة في واقعة الإفك التي برأ الله فيها أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -، ذلك أن أحد الذين شاركوا في نشر تلك الأقوال الباطلة، مسطح بن أثاثه، وكان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينفق عليه، فأقسم أبو بكر ألا ينفق عليه بعد ما نزل من القرآن في براءة ابنته، فنزل قول الله -تعالى-: ﴿ وَلَا يَأْتِلْ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (النور)، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بلى والله إنني لأحب أن يغفر لي»، وكفر عن يمينه وأرجع النفقة إلى مسطح وقال: «والله لا أنزعها منه أبداً».

- لا شك أن الصحابة وقَّافون عند كتاب الله -تعالى- وسنة النبي ﷺ هكذا رباهم النبي ﷺ، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ ففي البخاري أن عيينة بن حصن نزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس، وكان من النفر الذين يدينهم عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير فتستأذن لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فاستأذن لعيينة؛ فلما دخل عليه قال: يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل وما تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حتى همَّ بأن يقع به، فقال الحرّ: يا أمير المؤمنين، إن الله -تعالى- قال لنييه ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف)، وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقَّافاً عند كتاب الله، وهكذا كان جميع الصحابة -رضي الله عنهم-، ربما يغفل أحدهم ولكنه إذا ذكر رجع إلى الحق، ولم يتعداه. إن التسليم بالخطأ شاق على النفس، يحتاج إلى تجرد لله وصدق وإخلاص، وتذكير بالأجر والثواب، والإثم والعقاب، وتعوذ من الشيطان الرجيم، الذي يغوي ابن آدم ويغريه، ألا يتنازل عن مواقفه.

- إن كتاب الله -تعالى- وسنة النبي ﷺ مليئة بأمثلة للرجوع إلى الحق، والاعتراف بالذنب، فهذا أبونا آدم وزوجه، اعترفا بالخطيئة وتابا: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف)، وهذا نبي الله يونس - عليه الصلاة والسلام - يعترف بخطئه: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ

سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ (الأنبياء)، وسحرة فرعون لما تبين لهم الحق، سجدوا مباشرة، إيماناً بالله: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الشعراء) مع أنهم قبل ذلك قالوا: ﴿فَأَلْقُوا جِبَاهَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (الشعراء).

أما الكفار والمعاندون والجاحدون فلا يرجعون إلى الحق، وإن تبين لهم بل قولهم كما في سورة الأنفال: ﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِمَّنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (الأنفال)، وكان الأولى والأعقل والمنطقي أن يقولوا: «إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه واشرح صدورنا له!»

وأمثله ذلك في السنة النبوية كثيرة جداً؛ فيها هو النبي ﷺ معلم البشرية ومربيها -على مثل هذه الآداب والفضائل - يرجع إلى قول امرأة يهودية، بعد أن تبين له بالوحي صحة قولها: «بأن أهل القبور يفتنون في قبورهم عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي امرأة من اليهود وهي تقول: هل شعرت أنكم تفتنون في القبور؟ قالت: فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما تفتن يهود». قالت عائشة: فلبنا ليالي. ثم قال رسول الله ﷺ: «هل شعرت أنه أوحى إلي أنكم تفتنون في القبور؟» قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ بعدُ يستعيز من عذاب القبر» (رواه مسلم)،

وعندما رأى ابن مسعود رضي الله عنه خباباً رضي الله عنه وعليه خاتم من ذهب - قال له: ألم يأن لهذا الخاتم أن يُلقى؟ فقال خباب: أما إنك لن تراه علي بعد اليوم فألقاه» (رواه البخاري).

كان خباب رضي الله عنه يعتقد أن النهي عن لبس الرجال خاتم الذهب للتنزيه، فنبهه ابن مسعود رضي الله عنه على تحريمه، فرجع إليه مسرعاً. ومثل هذا؛ ما جاء من رجوع عمر رضي الله عنه وتسليمه بحديث الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك؛ وإلا فارجع» (رواه البخاري). بعد أن أنكره علي أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، فلما تثبت عُمرٌ من الخبر، وجاءه أبو سعيد رضي الله عنه وأخبره بصحة ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال عُمرٌ رضي الله عنه: «ما كُنْتُ عَلِمْتُ هذا» (صحيح - رواه الترمذي).



التواضع

«رأس التواضع أن تضع نفسك عند من هو دونك في نعمة الدنيا؛ حتى تُعلمه أن ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عن من هو فوقك في نعمة الدنيا حتى تُعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل» عبدالله المبارك.

- عبارة جميلة، لإمام عالم عامل، ولأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-: «إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة: التواضع»، وعن يحيى بن أبي كثير: «أفضل الأعمال الورع وأفضل العبادة التواضع»، وفي بيان قول الله -تعالى-: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان)، يقول ابن القيم -رحمه الله-: «أي سكينه ووقاراً متواضعين غير أشرين».

كنت وصاحبي أستاذ الشريعة، في طريقنا لقضاء حاجة صبيحة يوم السبت، قررنا أن نتناول طعام (الصباحية) في أحد المجمعات.

- عجبت لأمر هذا الإنسان، ينقلب حاله بين يوم وليلة؛ لأنه عين في منصب رفيع، أو أزيل من هذا المنصب، ألم تلاحظ ذلك في بعض الناس الذين تعرفهم؟!

- بلى ولا نستطيع التعميم، ولكن نعم هذا حال كثير من الناس، يرى نفسه من خلال ماله، أو منصبه، أو عشيرته، أو غير ذلك من أمور الدنيا، ويُستثنى من ذلك عباد الله المؤمنين!

- إن التواضع عبادة عظيمة، يبدأ بالتواضع لأوامر الله - عز وجل
 - وكتاب الله - تعالى -، وسنة النبي ﷺ، ويكون خُلُقاً مع الناس جميعاً
 ولا سيما من هم أضعف، وقد أمر الله - تعالى - به هذه الأمة من خلال
 خطاب نبيه ﷺ: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر)، قال القرطبي:
 «ألن جانبك لمن آمن بك، وتواضع لهم».

- بلغنا المكان الذي نريد، مطعم إفطار تركي متكامل، بخمسة دنائير
 للشخص، لا حاجة أن تطلب شيئاً سوى طريقة عمل البيض.
 تابعنا حديثنا:

- وكذلك قوله - تعالى في وصف المؤمنين -: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ
 يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى
 الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ
 وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيمٌ﴾ (المائدة).

في تفسير ابن كثير: «هذه صفات المؤمنين الكُمل، أن يكون أحدهم
 متواضعاً لأخيه ووليه»، وكذلك في وصف الفائزين يوم القيامة. ﴿تِلْكَ
 الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْتَقِينَ
 ﴾ (القصص).

- وماذا عن حديث من تواضع رفعه الله؟

- نعم هذا الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما
 نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد

لله إلا رفعه الله - عز وجل -» (مسلم)، يقول الشيخ ابن باز -رحمه الله-: «والتواضع وعدم التكبر من أسباب الرفعة في الدنيا والآخرة».

ويقول القاضي عياض: «فيه وجهان: أحدهما أن الله - تعالى - يمنحه ذلك في الدنيا جزاء على تواضعه، فيثبت له في القلوب محبة ومكانة وعزة، والثاني: أن يكون ذلك ثوابه في الآخرة على تواضعه»، وقول الشيخ ابن باز -رحمه الله- أشمل؛ ففضل الله واسع! وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا؛ حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد».

- وهل الحديث في ترك اللباس الثمين للتواضع والزهد صحيح؟! -
- نعم، الحديث عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يخيره أي حلل الإيمان شاء يلبسها» (رواه الترمذي وقال الألباني: حسن لغيره).

- سبحان الله! لم أكن متأكداً من هذا الحديث.

- في (تطريز رياض الصالحين)، في هذا الحديث فضيلة ترك الفاخر من اللباس تواضعاً لله، (أي بنية التواضع لله والزهد في الدنيا)، وهذا مثل قوله ﷺ في حديث أبي أمامة إياس بن ثعلبة الحارثي قال: ذكر أصحاب النبي ﷺ يوماً عنده الدنيا فقال ﷺ: «ألا تسمعون ألا تسمعون؟ إن البذاذة من الإيمان، إن البذاذة من الإيمان» (صحيح أبي داود).

استدركت على صاحبي:

- وكيف نوفق بين هذا وقوله ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»، عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- (صحيح البخاري).

- في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن يرى»: «بصيغة المجهول أي يبصر ويظهر أثر نعمه: أي إحسانه وكرمه -تعالى- على عبده: فمن شكرها إظهارها، ومن كفرانها كتمانها. قال المصنّف: «يعني إذا أتى الله عبداً من عباده نعمة من نعم الدنيا فليظهرها من نفسه، بأن يلبس لباساً يليق بحاله، لإظهار نعمة الله عليه، وليقصد المحتاجون لطلب الزكاة والصدقات، وكذلك العلماء يظهرون علمهم ليستفيد الناس منهم» اهـ.

فإن قلت: أليس قد حث على البذاذة؟

قلت: إنما حث عليها لئلا يعدل عنها عند الحاجة، ولا يتكلف للثياب المتكلفة كما هو مشاهد في عادة الناس، حتى في العلماء والمتصوفة، فأما من اتخذ ذلك ديدناً وعادة مع القدرة على الجديد والنظافة، فلا؛ لأنه خسة ودناءة، ويؤيد ما ذكرنا ما رواه البيهقي، عن أبي هريرة رضي الله عنه عنه ﷺ: «إن الله -تعالى- يحب المؤمن المتبذل الذي لا يبالي ما لبس» (رواه الترمذي): وكذا الحاكم عن ابن عمر.

قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله-: «وهذا يعني أن الإنسان إذا كان

بين أناس متوسطي الحال لا يستطيعون اللباس الرفيع، فتواضع وصار
يلبس مثلهم، لئلا تنكسر قلوبهم، ولئلا يفخر عليهم، فإنه ينال هذا الأجر
العظيم، أما إذا كان بين أناس قد أنعم عليهم، ويلبسون الثياب الرفيعة لكنها
غير محرمة، فإن الأفضل أن يلبس مثلهم؛ لأن الله -تعالى- جميل يحب
الجمال، ولا شك أن الإنسان إذا كان بين أناس رفيعي الحال، يلبسون
الثياب الجميلة، ولبس دونهم فإن هذا يعدّ لباس شهرة؛ فالإنسان ينظر ما
تقتضيه الحال».



قضاء حاجات الناس

- يحترار المرء فيم يقدم أو يؤخر من مكارم الأخلاق، وإن كنا نتفق على أن أهمها، صدق الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، ولكن ماذا بعد هذه الأولويات، الرفق، أم كظم الغيظ، أم الإحسان إلى الجار، أم العفو عن المسيء، أم ستر المسلمين، أم إصلاح ذات البين؟

قاطعته:

- وما المانع أن يأتي بها كلها؟

- هناك أعمال تحتاج إلى قدرات يجب أن تتوفر عند العبد، مثلاً قضاء حاجات الناس، هذه لا يستطيع كل أحد أن يفعلها، بل تتطلب شخصية ذات مقومات.

كنت وصاحبي في طريقنا لزيارة أخ لنا في مخيمه بمنطقة (السالمي) تبعد عن العاصمة مئة كيلو متر تقريباً، دعانا لقضاء مساء في الصحراء مع إبله. انطلقنا بعد صلاة العصر.

- أعتقد أن المرء يستطيع أن يكتسب أي خلق يجاهد نفسه عليه.

- نعم هذا صحيح، ولكن ينبغي أن يصل إلى مرحلة يؤدي فيها الطاعة وهو (راغب) فيها ومحب لها، ومقبل عليها، وقضاء حاجات المسلمين من الأعمال التي يعطي الله عليها جزيل الثواب.

دعني اقرأ لك ما يظهر لي من أحاديث في هذا الباب من هاتفي: عن ابن عمر -رضي الله عنهما-: «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول

الله أي الناس أحب إلى الله؟ وأي الأعمال أحب إلى الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحب الناس إلى الله -تعالى- أنفعهم للناس وأحب الأعمال إلى الله -عز وجل- سرور يدخله على مسلم، أو يكشف عنه كربة، أو يقضي عنه ديناً، أو يطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ في حاجة، أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد (يعني: مسجد المدينة) شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهياً له، أثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام» وإن سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل» (السلسلة الصحيحة).

وعن جابر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «خير الناس أنفعهم للناس» (صحيح الجامع).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» (رواه مسلم).

- لذلك أظن أن العلماء قالوا: «إن العبادة المتعدية إلى الآخر أفضل من العبادة القاصرة على الفرد»

- نعم.. هذه قاعدة جميلة في باب أعمال الخير.

قال المناوي: «وفيه حث على قضاء حوائج الخلق ونفعهم بما تيسر

من علم أو مال أو جاه، أو إشارة أو نصح أو دلالة على خير، أو إعانة أو شفاة أو غير ذلك» (انتهى).

- لا شك أنها نعمة عظيمة من الله - عز وجل - على العبد أن يجعله سبباً في قضاء حاجات الناس، سواء بمكانته في المجتمع وجاهه، أو مركزه، أو معارفه، ولكن ينبغي أن يستحضر قبل كل ذلك أنه يعمل لوجه الله - تعالى - فيخلص النية دائماً لوجه الله - تعالى -، لا ليقال فلان كريم وفلان ذو جاه وفلان وفلان.

- نعم هذا شرط أساسي في كل عمل، أن يجدد العبد نيته أن يعمل لوجه الله - تعالى -، وابتغاء مرضاة الله - عز وجل -، لا لأجل دنيا وسمعة وشهرة، وغير ذلك وهذا الخلق (أعني إخلاص النية لله)، ينبغي أن يربي العبد نفسه عليه؛ لأنه يدخل في جميع أبواب الخير، وأحوج ما يكون إليه العبد في الأعمال التي يعملها لأجل الآخرين؛ فإنه يأخذ من وقته، وجهده، ليسعى عند الآخرين لقضاء حوائج الناس، هذه تحتاج إلى مجاهدة؛ لذلك أجرها عظيم عند الله - تعالى -. في الحديث أيضاً، عن أبي موسى الأشعري قال رسول الله ﷺ: «على كل مسلم صدقة، قيل أرأيت إن لم يجد؟ قال: يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق، قيل أرأيت إن لم يستطع؟! قال: يأمر بالمعروف أو الخير، قيل أرأيت إن لم يفعل؟ قال يمسك عن الشر فإنها صدقة» (متفق عليه).

- إن مما يدفع المرء إلى قضاء حاجة إخوانه ممن يستطيع أن يعينهم،

حديث النبي ﷺ عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً، ستره الله يوم القيامة» (متفق عليه)، هذا دافع عظيم ليسعى العبد في قضاء حوائج إخوانه، ويفرج عنهم كرباتهم؛ فإن الله يقضي حاجاته، ويفرج عنه من كرب يوم القيامة وأهوالها العظيمة، فهو في سعيه لنفع إخوانه إنما ينفع نفسه منفعة أعظم، وهذا مثل الدعاء للإخوان في ظهر الغيب، كما في حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل» (مسلم).



إشفعوا.. تؤجروا!

صدر قرار بإعفاء من بلغ الستين عاماً من بعض الوظائف... بعد صلاة المغرب والأذكار والسنة.. اقترب مني.. سألني.. إن كنت فلاناً؟.. أجبته نعم... بعد مقدمة قصيرة.. طلب مني أن أكلم وكيل الوزارة للتمديد له سنة واحدة.. يسوي خلالها.. وضعه.. سألته... لم أنا؟ فأنا لا أعرف الوكيل ولا علاقة لي معه؟!.. أجاب.. سمعت أنك تساعد الناس... وعدته خيراً!!!

- كان صاحبي يروي لي ما حصل معه ونحن في طريقنا إلى مسجد (الزبن)... لمحاضرة الشيخ... (د. صالح السحيمي)...

- سوف أسأل عن أحد يعرف وكيل الوزارة أو أذهب بنفسني لعلّ الله يوفقني أن أنجز لهذا المؤذن حاجته...

إلتفت إليه.. مبتسماً..

- أغبطك على هذه السمعة.. (أنك تساعد الناس).. فالسعي في قضاء الحاجات من أعظم العبادات، بل أحب إلى الله من الجلوس في المسجد للاعتكاف والذكر وقراءة القرآن... والحديث في الصحيحين.. «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته...».

- الحمد لله... أنا أسعى.. والله المستعان...

قررنا الذهاب مشياً إلى المحاضرة.. المسجد يبعد كيلو متراً واحداً عن مسجدنا...

- وكان النبي ﷺ.. إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما أحب» (متفق عليه).

الشرح:

- «اشفعوا»: لأرباب الحاجات المباحة كدفع ظلم وتخليص عطاء ونحوهما، وكذا في العفو عن ذنب ليس فيه حدٌ من حدود الله إذا لم يكن المذنب مصراً وإلا فلا يجوز ليرتدع عن الذنب والإصرار، وقيل معناه: اشفعوا في قضاء حوائج أخيكم. «تؤجروا»: بمجرد الشفاعة قبلت أو لا بلا توقُّف على القبول «ويقضي الله»: يحكم، «على لسان رسوله»: من الأمر، «ما شاء الله»: يعني أن قضاء حاجة من شفع بتقديره تعالى كما أنَّ عدمه كذلك.

- أنا أذكر دائماً حديث ابن عمر رضي الله عنه... قال رسول الله ﷺ: «أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور يدخله على مسلم، أو يكشف عنه كربة، أو يقضي عنه ديناً، أو يطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إليّ من أن أعتكف في هذا المسجد (مسجد المدينة) شهراً، ومن كفَّ غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه، ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهياً له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام» (صحيح الترغيب).

- هذا حديث عظيم في مكارم الأخلاق...

- نعم.. قال الحسن البصري في ذلك... الشفاعة الحسنة يجري أجرها لصاحبها ما جرت منفعتها!!!

وعن معاوية رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اشفعوا إليّ لتؤجروا إني أريد الأمر وأؤخره كي تشفعوا إليّ فتؤجروا» (صحيح النسائي).

- المشكلة أن كثيراً من الناس... إذا شفعت لهم وقضيت حاجتهم.. يرسلون إليك هدية.. من باب الشكر.. مع أن هذا الأمر منهي عنه.

استغرب صاحبي مقولتي...

- أهو منهي عنه؟! -

- نعم... في الحديث عن أبي أمامة... أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من شفّع لأحد شفاعة فأهدي له هدية عليها فقبلها.. فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الربا» (صحيح أبي داود)..

- سبحان الله... مع أن هذا الأمر يقع مع أغلب الناس...

- جاء نصراني إلى الإمام الأوزاعي وكان يسكن بيروت فقال: إن والي بعلبك ظلمني وأريد أن تكتب فيّ إليه، وأتاه بقلّة عسل - هدية معه - فقال له: إن شئت رددت عليك قلتك وأكتب إليه؟ وإن شئت أخذتها ولا أكتب؟ - أنت بين أمرين إما أن تأخذ هديتك وأكتب لك، وإلا لا أكتب لك وأقبل هديتك - فقال النصراني: بل اكتب لي واردها، فكتب له أن ضع عنه من خراجها، فشفّعه الوالي فيه، وحط له عن جزيته ثلاثين درهماً.

أي: كان قد أخذ أكثر من الجزية الشرعية.

- وبالطبع... لا تجوز الشفاعة في حد من حدود الله... بمعنى.. إذا رفع الأمر إلى الوالي، وهناك حد ليقام لا تجوز الشفاعة لإيقاف هذا الحد كما في حديث المخزومية... عن عائشة رضي الله عنها: «أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت... فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ... فكلمه أسامة!!! فقال ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله؟!» ثم قام فخطب: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله.. لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» (البخاري).

وفي «رياض الصالحين»: عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة بريرة وزوجها. قال: قال لها النبي ﷺ: «لو راجعته؟» قالت: يا رسول الله، تأمرني؟ قال: «إنما أشفع» قالت: لا حاجة لي فيه. (رواه البخاري).

الشرح:

والشفاعة: هي التوسط للغير، لجلب منفعة أو دفع مضرة.

مثال الأول: أن تتوسط لشخص عند آخر في أن يساعده في أمر من الأمور.

ومثال الثاني: أن تشفع لشخص عند آخر في أن يسامحه ويعفو عن

مظلمته، حتى يندفع عنه الضرر.

ومثال ذلك في أيام الآخرة: أن النبي ﷺ يشفع في أهل الموقف

ليُقتضى بينهم، حين يصيبهم من الكرب والغم ما لا يطيقون، فهذه شفاعته في دفع مضرة.

ومثالها في جلب منفعة، أن النبي ﷺ يشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة.

والمراد بالشفاعة في كلام المؤلف: الشفاعته في الدنيا، وهي أن يشفع الإنسان لشخص عند آخر، يتوسط له لجلب المنفعة له أو دفع المضرة عنه.

والشفاعة أقسام:

القسم الأول: شفاعته محرمة لا تجوز، وهي أن يشفع لشخص وجب عليه الحدّ بعد أن يصل إلى الإمام، فإن هذه الشفاعته محرمة لا تجوز، مثال ذلك: رجل وجب عليه حدّ في قطع يده في السرقة، فلما وصلت إلى الإمام أو نائب الإمام، أراد إنسان أن يشفع لهذا السارق ألا تقطع يده، فهذا حرام أنكره النبي ﷺ إنكاراً عظيماً.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال، قال ﷺ: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله، فقد ضاد الله في أمره» (صحيح أبي داود).

وقال ﷺ: «إذا بلغت الحدود السلطان، فلعن الله الشافع والمشفع» (الطبراني).

ولما سُرِق رداء صفوان بن أمية، وكان قد توسده في المسجد، فجاء

رجل فسرقه، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يد السارق، انظر ماذا سرق؟ سرق رداءً، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يده، فقال: يا رسول الله، أنا لا أريد ردائي، يعني أنه رحم هذا السارق وشفع فيه، ألا تقطع يده، فقال النبي ﷺ: «هلاً كان ذلك قبل أن تأتيني به».

يعني لو عفوت عنه قبل أن تأتيني به، لكان ذلك لك، لكان إذا بلغت الحدود السلطان، فلا بد من تنفيذها، وتحرم فيها الشفاعة.

القسم الثاني: أن يشفع في شيء محرم، مثل أن يشفع لإنسان معتد على أخيه، أعرف مثلاً أن هذا الرجل يريد أن يخطب امرأة مخطوبة من قبل، والمرأة المخطوبة لا يحل لأحد خطبتها، فذهب رجل ثان إلى شخص وقال: يا فلان أحب أن تشفع لي عند والد هذه المرأة يزوجنيها، وهو يعلم أنها مخطوبة، فهنا لا يحل له أن يشفع، لأن هذه شفاعة في محرم.

فَنظرة إلى ميسرة!

اتفقت وصاحبي أن نخرج لتناول العشاء مساء الأربعاء... صليت العشاء في مسجدهم... استوقفه أحدهم ونحن نغادر المسجد.. ابتعدت قليلاً... أعطيتهم فرصة الحديث...

توليت القيادة... بدأ هو الحديث...

- أصبحت الاستدانة هذه الأيام وسيلة سهلة للحصول على المال.. حتى لا يكاد أحد يسد الدين!!! لذلك.. اتخذت شعاراً بيني وبين نفسي... أن من أداينه... أعلم أنه لن يسد الدين!! مع أنه يكتب ورقة بالمبلغ... وموعد السداد.. ويُشهد على ذلك اثنين!!

كان صاحبي متضيقاً.. بعض الشيء...

- كلامك صحيح... ولكن لا نستطيع التعميم.. ربما يمر أحدهم بضائقة مالية نتيجة حادث سير.. أو مرض مفاجئ... أو مصيبة في تجارة.. فيضطر إلى الاستدانة.. والإنسان وقت الحاجة... يعطي كل الموثيق.. والعهود.. ووقت السداد... يثقل عليه الأمر... وربما يعجز عنه صدقاً.

- إن (الدين).. شأنه عظيم في شريعتنا.. وخاصة في الآخرة.. كما في حديث سهل بن حنيف.. قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أول ما يهراق من دم الشهيد يغفر له ذنبه كله إلا الدين» (صحيح الجامع)، فلا يسقط حق الدائن حتى يستوفيه من المدين ولو بالحسنات يوم القيامة!!

ومع ذلك فإن الله عزَّ وجلَّ حثَّ الدائن أن يبسّر على المدين.. وأن

ينظره.. ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة).

والأحاديث في إنظار المعسر.. كثيرة.. عن قتادة قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة» (مسلم). وفي رواية: «من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه» (مسلم).

قاطعني:

- هذا إن كان المدين صادقاً... عندما طلب الدين ينوي أداءه... ويسعى بصدق لأدائه ببذل الأسباب... لا من ينوي أن يستدين ولا يرد الدين!!
- نحن لا نتدخل في النيات يا (أبا أحمد)... علينا بالظاهر من أحوال الناس... وتعرف حديث ذلك الرجل... قال ﷺ: «كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتيانه إذا أتيتهم معسراً فتجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا... فلقى الله.. فتجاوز عنه» (مسلم).

وعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة»، ثم سمعتك تقول: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثليه صدقة».. قال ﷺ: «له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثليه صدقة» (صحيح الجامع)

- هذا الحديث أول مرة أسمعه!!! يعني له أجر الصدقة بمبلغ الدين..

كل يوم؟.. ثم بمثليه كل يوم بعد الدين؟... هذا أجر عظيم... مع أن الدين قائم..

- نعم هو كذلك... والحديث صحيح... لذا.. يحتسب الدائن الأجر من الله.. طيبة نفسه... دون تذمر أو شكوى... أو إلحاح.. أو ضيق نفس.. خاصة إذا كان ممن أنعم الله عليه بالمال... فهذا باب عظيم من أبواب الخير كما في الحديث.. عند مسلم.

«حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً، وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر... قال الله عز وجل: نحن أحق بذلك منه.. تتجاوزوا عنه».

قاطعني:

- طبعاً.. هذا الرجل أتى بالتوحيد وتجنّب الشرك.. وأتى الواجبات.. ولكن لم يكن له من أعمال البر الأخرى إلا (التجاوز عن المعسر)..
- وربما كان مقصراً في بعض الواجبات... فهذا العمل العظيم رجّح كفة حسناته على سيئاته... فكان من أهل الجنة!!
- وعلى المدين أن يكون صادقاً لحظة الاستدانة أن ينوي إرجاع الدين حتى يعينه الله على ذلك... كما في الحديث..

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله عليه». (البخاري)

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضاه ديناً كان عليه، فاشتد عليه حتى قال: أخرج عليك إلا قضيتني، فانتهره الصحابه قالوا: ويحك تدري من تكلم؟ فقال: إني أطلب حقي، فقال النبي ﷺ: «هلا مع صاحب الحق كنتم»، ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها: إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمر، فنقضيك، فقالت: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فاقترضه فقضى الأعرابي وأطعمه، فقال: أوفيت أوفى الله لك، فقال: أولئك خيار الناس إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع» (صحيح الترغيب).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال، قال رسول الله ﷺ: «ما يسرني أن لي أحداً ذهباً تأتي علي ثلاثة وعندي منه دينار إلا دينار أرصده لدين علي». (مسلم)

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال، قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «ألا أعلمك دعاء تدعوه به لو كان عليك مثل جبل أحد ديناً لأداه الله عنك، قل: يا معاذ: اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطيهما من تشاء، وتمنع منهما من تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة سواك». (صحيح الترغيب)

أَحَبُّ لِأَخِيكَ مَا تَحِبُّ لِنَفْسِكَ

- من الفطرة أن يحب المرء الخير لنفسه، وأن يستأثر بكل ميزة ومنفعة دنيوية لذاته، هذا الشعور لا شيء فيه؛ بل هو خلق في الجنس البشري كما لوازم الحياة الأخرى من الأكل والشرب والنوم، وجاء الإسلام ليهذب هذه الخصلة الفطرية حتى لا تطغى، فتصبح حسداً، أو عدواناً وظلماً، فقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (متفق عليه)، وفي حديث خالد بن عبدالله القسري عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الجنة؟ قلت نعم، قال ﷺ: «أحب للناس ما تحب لنفسك» (السلسلة الصحيحة)، وينبغي التنبيه هنا إلى أن لفظ (لا يؤمن)، و(لا يدخل الجنة)، لا تعني أنه كافر، أو أنه يخلد في النار؛ بل إيمانه لا يكمل، وأنه لا يدخل الجنة ابتداءً، دون حساب أو عذاب، فهو نفي لكمال الإيمان، وليس لكل الإيمان.

كنت وصاحبي في مسجد في منطقة (صباح الناصر)، حانت صلاة المغرب في طريقنا إلى سوق الخضار الجديد، قرنا البقاء لسماع الخاطرة التي بادر الإمام إلى إلقائها، بعد التسليم مباشرة...

- رواية في مسند أحمد: «حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير»، وهذه خصلة من خصال الإيمان، وخلق من مكارم الأخلاق التي ينبغي أن يدرّب المسلم نفسه عليها.

و(حب الخير للغير)، ينبغي أن يتعدى حدود أخوة الرحم، وأخوة

الجيرة، وأخوة المسجد؛ ليشمل أخوة الإسلام؛ فيحب لجميع المسلمين ما يحب لنفسه، فهذا الخلق فيه درجات كثيرة يرتقي بها المؤمن بحسب إيمانه، ففي الحديث عن عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال رسول الله ﷺ: «فمن سره أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتدرکه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يأتوا إليه» (صحيح ابن ماجه).

والمرء يستطيع أن يقيس هذه الخصلة في نفسه إن كان صادقاً، وذلك بأن يرى مدى سروره إذا أصاب الخير غيره، وإذا نال الترقية زميله، وإذا رزق الله جاره، مالا كثيراً أو منزلاً أو حظاً وافراً من الدنيا، هل يفرح له كما يفرح لو أنه هو من نال ذلك؟

أظن أن كثيراً منا يتردد أن يقول نعم، ولا بأس بذلك، ولكن إياك وأن تحسده على ذلك! أقول هذا المقياس في الفرح لنيل أخيك شيئاً، أحد مقاييس الإيمان في قلبك، عن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: «ما نزل غيث بأرض إلا فرحت بذلك وليس لي فيها شاة ولا بعير، ولا سمعت بقاض عادل إلا دعوت الله له، وليس لي عنده قضية، ولا مررت بآية من كتاب الله إلا أحببت أن يعلم الناس منها ما أعلم».

بعد انتهاء الخاطرة أدينا سنة المغرب، تابعنا حديثنا في المركبة.

- لقد كانت خاطرة مميزة، رزقنا الله إياها.

- الحمد لله.

- إن خلق (حب الخير للغير)، ربما يبدأ بأن يدرب العبد نفسه ألا يدخل قلبه شيء من تمنى ما يناله الآخرون، بأن يذكر نفسه أن ما ناله غيره إنما كان بأمر الله وقضائه، ولا سيما إذا كان ينافس غيره على مال أو منصب، فما فاته لم يكن مكتوباً له ابتداءً، وما ناله غيره كان مقدراً له قبل خلق السماوات والأرض ثم يرتقي، بعد ذلك بأن يبارك لغيره ويدعو له، بصدق، فإن الدعوة للآخرين بالخير، بصدق يزيل ما في القلب من بقايا حسد أو غيره، ويعين على ذلك أن يعلم أن دعوته لأخيه بالخير، ترجع عليه بالخير، كما في الصحيحين يقول الملك (أمين، ولك بمثل).

استدرك علي صاحبي:

- أظن أن أول قضية ينبغي أن يذكر العبد نفسه بها، أن خزائن الخير كلها بيد الله، يقسمها - سبحانه - بعلمه وحكمته ولطفه، على من يشاء من عباده، فمن أراد الخير، فلينظر إلى السماء، لا إلى ما في أيدي الناس، وليدع الله بما يريد من خير الدنيا والآخرة، ولا ينشغل بما عند الآخرين، وإذا علم أن غيره نال خيراً فليفرح له وليدع له بالبركة والتوفيق، فيكون تعامل العبد مع الخالق لا مع الخلق، وإلا فبداية الحسد، النظر لما عند الآخر، وتمني نيئه، ثم ينحدر إلى تمني زواله من غيره ليناله هو، وهذه هي الحالقة، (تحلق الدين) والعياذ بالله.

شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يذكر الكبائر فيقول: هي كل ذنب رتب عليه الشارع عقوبة خاصة؛ فكل ذنب لعن النبي ﷺ فاعله فهو من

الكبائر، وكل ذنب فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو من الكبائر، وكل ذنب فيه نفي إيمان مثل: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، فهو من الكبائر (أسباب رفع العقوبة- لابن تيمية).

ويقول -رحمه الله- في (رسالة في أمراض القلوب وشفائها). وقد قال -تعالى-: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْتَأَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ (النساء).

كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما، فهؤلاء المبطئون لم يحبوا لإخوانهم المؤمنين ما يحبون لأنفسهم، بل إن أصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم! وإن أصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بها، بل أحبوا أن يكون لهم منها حظ؛ فهم لا يفرحون إلا بدنيا تحصل لهم أو شر دنيوي ينصرف عنهم؛ لأنهم لا يحبون الله ورسوله والدار الآخرة، ولو كانوا كذلك لأحبوا إخوانهم، وأحبوا ما وصل إليهم من فضله، وتألّموا بما يصيبهم من المصيبة، ومن لم يسره ما يسر المؤمنين ويسوؤه ما يسوء المؤمنين فليس منهم.

إصلاح ذات البين

فصل الصيف في الكويت الأشد على وجه الأرض، يمتد لأكثر من أربعة شهور، من منتصف مايو إلى سبتمبر! ويسمى فصل الصيف عندنا (القيظ)، أما الأقسى في هذه الفترة فهي (جمرة القيظ)، وتمتد من نهاية يوليو إلى الأسبوع الثالث من أغسطس! مع هذه الأجواء الملتهبة، تتعكر النفسيات، وتكثر المشكلات بمختلف أنواعها.

كنت وصاحبي نترىض في أحد مراكز التسوق صباحاً قبل أن يبدأ النشاط التجاري للمحلات ويزدحم (المول)؛ لأنه ملاذ الكثيرين في الصيف وإن لم تكن لهم حاجة في السوق!

- هل نجحت في الإصلاح بين (أبي خالد) و(أبي محمد)؟!

- (أبو محمد) يستجيب، و(أبو خالد) يتعنت، ولكن لا زلت آمل أن تصفى القلوب وتصدق النيات حتى تتم الألفة بينهما.

- المحزن أنهما من رواد المسجد الذين لا تفوتهم صلاة، الآن كل واحد منهما يصلي في مسجد مختلف.

- إن المرء عندما يقرأ أحاديث السعي في الإصلاح بين الناس لا يملك إلا أن يجتهد في هذا (العمل العظيم)؛ بل الله -عز وجل- أمر المسلمين أن يصلحوا بين المتخاصمين؛ فقال -عز وجل-: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال).

عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: «هذا تحريج من الله على المؤمنين

أن يتقوا الله وأن يصلحوا ذات بينهم»، أي لا مساغ للناس سوى التقوى والإصلاح؛ فالمؤمن مطالب قدر جهده أن يصلح بين المتخاصمين سواء كانوا جيراناً، أو أقارب، أو أزواجاً، أو أبناء.

هذه سمة عامة بين المسلمين، وهي السعي في الإصلاح بين الناس؛ فهي عبادة عظيمة، إن صدقت النية.

في الحديث عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين؛ فإن إفساد ذات البين الحالقة» (صحيح الترغيب)، وفي رواية: «لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين» (صحيح لغيره).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال لأبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ألا أدلك على تجارة؟ قال: بلى، قال ﷺ: صل بين الناس إذا تفسدوا، وقرب بينهم إذا تباعدوا» (صحيح الترغيب)، وفي رواية: «ألا أدلك على عمل يرضاه الله ورسوله؟ قال: بلى، فذكره».

- جزاك الله خيراً على سعيك، دعني أشاركك الأجر، وأجمع بينهما في بيتي في الأيام المقبلة، ولكن دعنا نمهد لذلك، فنخبر أبا محمد أن أبا خالد نادم على ما قال: ونخبر أبا خالد أن أبا محمد يذكره بخير، حتى نلين القلوب وتذهب البغضاء.

- ذكرتني بحديث النبي ﷺ، عن أم كلثوم بنت عقبة امرأة عبد الرحمن بن عوف وأخت عثمان بن عفان لأمه -رضي الله عنهم- أن النبي ﷺ قال: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرا، أو يقول خيرا» (صحيح الأدب المفرد).

(فينمي)، نقل الحديث بين الناس وبلغه، ومنه النميمة التي نهى عنها رسول الله ﷺ.

- الأحاديث في الإصلاح بين الناس كثيرة، ويتأكد الإصلاح كلما كانت العلاقة أقرب، كالإصلاح بين الأب وابنه والزوج وزوجه، والأخ وأخيه، والجار وجاره، وهكذا.

- بل وآيات الكتاب تدعو إلى الإصلاح وتنهى عن الإفساد كما في قوله -تعالى-: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء، ١١٤).

أي: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون، وإذا لم يكن فيه خير فإما لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة كالكلام المحرم بأنواعه. ثم استثنى -تعالى- فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ من مال أو علم أو أي نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة كالتسبيح والتحميد ونحوه، كما قال النبي ﷺ: «إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي

عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة» الحديث. ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وهو الإحسان والطاعة وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهاي عن المنكر دخل فيه النهي عن المنكر؛ وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضاً لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر، وأما عند الاقتران فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي.

﴿أَوْ إِصْلَاحِ بَيْنِ النَّاسِ﴾ والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره، فلذلك حث الشرع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان كما قال -تعالى-: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ وقال -تعالى-: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات).

وقال -تعالى-: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القائم بالصلاة والصيام والصدقة والنافلة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله.

وكمال الأجر وتماهه بحسب النية والإخلاص؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ فهذا ينبغي للعبد أن

يقصد وجه الله -تعالى- ويخلص العمل لله في كل وقت وفي كل جزء من أجزاء الخير؛ ليحصل له بذلك الأجر العظيم؛ وليتعود الإخلاص فيكون من المخلصين، ليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا؛ لأن النية حصلت واقترن بها ما يمكن من العمل.

نصرة المظلوم

بعد صلاة العشاء.. رأيت أحدهم يقف بجانب مركبة (أبي أحمد) يصرخ.. ويرفع يده متوعداً... أسرع لأعرف ما الذي يجري... سألته قال غاضباً..

لماذا يطرد ابني من الصف الأول؟!!

- لم يطرده يا أبا ثامر.. وإنما أشار إليه أن يفسح مكاناً للمؤذن.. وأنا كنت هناك.. ورأيت الحادثة كاملة.. رد بلهجة أشد..

- بل طرده.. إبني قال وإذا فعلها مرة أخرى سوف يرى ما لا يسره مني...!

- اتق الله يا أبا ثامر.. (أبو أحمد) بعمره والدك - اقترب من الثمانين - ولا ينبغي لك أن تكلمه بهذه اللهجة.. ربما نقل لك ابنك الحادثة وفهمت منه خلاف الواقع... لم يفعل له شيئاً لم يطرده.. ولم ينهره.. وإنما أشار إليه أن يفسح مكاناً للمؤذن...

تركنا.. غاضباً.. متوعداً.. مهدداً..

- طيبت خاطر (أبي أحمد)... قبلت رأسه...

في اليوم التالي.. سألت جيران أبي ثامر.. فأخبروني أنه (عصبي).. حاد الطبع.. ذات مرة خرج بسلاح يهدد جاره الذي أوقف مركبته

لدقائق أمام منزله... ونصحوه بتقديم شكوى لدى الشرطة... ليتعهد
ألا يكرر فعلته!!

كانت هذه الحادثة محور حديثنا في مجلس المسجد بين العشائين..
ابتدأ إمامنا..

- في الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.. لما رجع بعض
من هاجر إلى الحبشة إلى رسول الله ﷺ سألهم: «ألا تحدثوني بأعاجيب
ما رأيتم بأرض الحبشة»؟! قالوا... بلى يا رسول الله..

بيننا نحن جلوس.. مرّت عجوز من عجائز رهايينهم تحمل على رأسها
قلة من ماء.. فمرّت بفتى منهم.. فجعل إحدى يديه بين كتفيها ثم دفعها
فخرّت على ركبتيها.. فانكسرت قَلَّتْهَا!! فلما ارتفعت إلتفتت إليه فقال:
سوف تعلم - عُدر - إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين والآخرين،
وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون - فسوف تعلم كيف أمري
وأمرك عنده غداً» قال رسول الله ﷺ: «صدقت.. كيف يقدر الله أمة لا
يؤخذ لضعيفهم من شديدهم». (صحيح ابن ماجه)، علقت على الحديث..

- سبحان الله.. حديث جميل أول مرة أسمع!!

- نعم.. ورد في باب (نصرة المظلوم).. وأن من حق المسلم على أخيه
أن ينصره - بما يستطيع - إذا وقع عليه ظلم... كما في الحديث الآخر.

«ما من امرئ يخذل امرءاً مسلماً عند موطن تنتهك فيه حرمة.. وينتقص
فيه من عرضه إلا خذله الله عز وجل في موطن يحب نصرته.. وما من امرئ

ينصر امرءاً مسلماً في موطن ينتقص فيه عرضه وتنتهك فيه حرمة إلا نصره
الله في موطن يحب فيه نصرته». (رواه أحمد وحسنه الألباني)

- أحاديث جميلة يا أبا عمر بارك الله فيك...

كان المتحدث أبا ناصر...

- كلنا يعرف حديث النبي ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً».. فقال
رجل: أنصره إذا كان مظلوماً.. أفأرى إذا كان ظالماً.. كيف أنصره؟ قال:
«تحجزه - أو تمنعه - من الظلم فإن ذلك نصره». (البخاري)

- نعم.. فالمسلم مأمور أن ينصر المظلوم... وإن كان غريباً.. وإن كان لا
تربطه به صلة.. هكذا هي أخلاق ديننا.. التي أمرنا الله بها.. أما الذي ينتصر
لقومه - دون حق - فقد ذمّه النبي ﷺ كما في الحديث: «من نصر قومه على
غير الحق فهو كالبعير الذي رُدِّي فهو ينزع بذنبه». (صحيح الجامع)

- هل لك أن تبين لنا جانباً من معنى هذا الحديث؟!

«البعير الذي ردي».. الذي سقط في بئر أو هاوية.. والبعير المتردي لا
يستطيع الخلاص بنفسه...

«فهو ينزع بذنبه» أي يجر ويسحب من ذنبه لإخراجه من البئر.. وهو
كناية عن الهلاك والضرر..

قال الخطابي: معناه أنه وقع في الإثم كالبعير إذا تردى في بئر فصار
يسحب من ذيله.. ولا يقدر على النجاة!!!

فهذا الذي انتصر لغير الحق أهلك نفسه، حيث أراد الرفعة بنصرة أهله.. وقع في إثم لا يستطيع الخروج منه!!

- ونصرة المسلم تكون بحضرته وغيبته.. كما في الحديث.. «من نصر أخاه بظهر الغيب نصره الله في الدنيا والآخرة». (صحيح الجامع)

فهذه إحدى حقوق أخوة الدين... نصره المسلم والذب عنه في حال غيبته... وحتى بعد موته!!!

وكلنا يعرف حديث النبي ﷺ في الصحيحين..

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة (من كرب الدنيا) فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

وفي رواية: «لا يظلمه ولا يخذله»..

«لا يسلمه» أي لا يتركه مع ما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه.

قال ابن حجر: والدفاع عن ظلم المسلم أخص من ترك الظلم.. وقد يكون ذلك واجباً، وقد يكون مندوباً بحسب اختلاف الأحوال. (فتح الباري)

ومقولة: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، كانت في الجاهلية، وكان أول من قالها - جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم -.. أراد المعنى الظاهر.. وقالها النبي ﷺ... بوحى من السماء بالمعنى الصحيح بعد أن جاء الإسلام..

وسبب هذا الحديث أن رجلاً من المهاجرين اقتتل مع غلام من الأنصار.. فنادى المهاجر (يا للمهاجرين).. ونادى الأنصاري (يا للأنصار) فخرج عليهم النبي ﷺ، فقال: «ما هذا؟ أبدوى الجاهلية»، قالوا: لا يا رسول الله.. إن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر... فقال ﷺ: «لا بأس ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً». الحديث

أُسْتَرْتُسْتَر

- في حديث ماعز بن مالك الذي أقام عليه النبي ﷺ حد الزنا عجباً!

- ماذا تعني؟! -

- دعني أقرأ تفاصيل الحدث كما ورد في مسند الإمام أحمد.

روى أحمد عن وكيع حدثنا هشام بن سعد أخبرني يزيد بن نعيم بن هزال عن أبيه (هزال بن يزيد الأسلمي) قال: كان ماعز بن مالك في حجر أبي، فأصاب جارية من الحي؛ فقال له أبي إئت رسول الله ﷺ فأخبره بما صنعت لعله يستغفر لك، وإنما يريد بذلك رجاء أن يكون له مخرج، فأتاه فقال: يا رسول الله، إني زنيت فأقم علي كتاب الله، فأعرض عنه، ثم أتاه الثانية فقال: يا رسول الله، إني زنيت فأقم علي كتاب الله فأعرض عنه، ثم أتاه الثالثة فقال: يا رسول الله، إني زنيت فأقم علي كتاب الله فأعرض عنه، ثم أتاه الرابعة فقال يا رسول الله، إني زنيت فأقم علي كتاب الله، فقال رسول الله ﷺ: إنك قد قلتها أربع مرات فبمن؟ قال بفلانة، قال هل ضاجعتها؟ قال: نعم. قال: هل باشرتھا؟ قال: نعم. قال: هل جامعتهما؟ قال: نعم. قال: فأمر به أن يرحم، قال: فأخرج به إلى الحرّة، فلما رُجم فوجد مسّ الحجارة جزع؛ فخرج يشتد، فلقية عبدالله بن أنيس وقد أعجز أصحابه؛ فنزع له بوظيف بعير فرماه به فقتله، قال: ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له؛ فقال: هلا تركتموه لعله يتوب فيتوب الله عليه.

قال هشام فحدثني يزيد بن نعيم بن هزال عن أبيه أن رسول الله ﷺ

قال لأبي حين رآه: «والله يا هزال لو كنت سترته بثوبك كان خيراً مما صنعت به». (حديث صحيح لغيره)

عندما أقيم على ماعز الحد هرب، فلقى عبد الله بن أنيس فضربه بوظيف بعير (وهو عظم فوق الرسغ من ساق البعير)، فقتله، فلما علم النبي ﷺ كأنه عاتب من فعل ذلك فقال: «هلا تركتموه لعله يتوب فيتوب الله عليه»، والأعجب من ذلك أن النبي ﷺ عندما لقي هزال قال له: «والله يا هزال لو كنت سترته بثوبك كان خيراً مما صنعت به»!

أي لو لم تنصحه أن يأتي ويعترف بجرمه ويصر على ذلك، لو سترته ونصحته بالتوبة لكان خيراً من أن يقام عليه الحد!

لم يُخفِ صاحبي إعجابه بهذه الملاحظة.

- أول مرة أنتبه إلى هذه النقطة في حديث ماعز المشهور، الستر مع التوبة خير من الإقرار بالذنب للحاكم وإقامة الحد!

- نعم هذا لمن لم يكن من المجاهرين بالمعاصي، الناشرين للذيلة، الداعين إلى الفاحشة، الله - سبحانه - يحب الستر، ومن أسمائه الحسنی (الستير)، والأحاديث التي تحث على ستر عورات المسلمين وعثرتهم وزلاتهم كثيرة، منها: روى الشيخان عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن

مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة».

وروى أبو داود عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته» (صحيح أبي داود).

وروى أبو داود عن راشد بن سعد عن معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم، فقال أبو الدرداء كلمة سمعها معاوية من رسول الله نفعه الله -تعالى- بها» (صحيح أبي داود).

وروى الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «كل أمي معافي إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه».

وفي تفسير الطاهر بن عاشور عند قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور). من أدب هذه الآية أن شأن المؤمن ألا يجب

لإخوانه المؤمنين إلا ما يحب لنفسه، فكما أنه لا يحب أن يشيع عن نفسه خبر سوء، كذلك عليه ألا يحب إشاعة السوء عن إخوانه المؤمنين.

قال ابن القيم: «للعبد ستر بينه وبين الله، وستر بينه وبين الناس فمن هتك الستر الذي بينه وبين الله، هتك الله الستر الذي بينه وبين الناس» (الفوائد ص ٦٤).

قاطعني صاحبي:

- كل هذه الأحاديث جميلة، وتبين جانباً من كمال الشريعة، ولكن بعض الناس يسكت والمعصية تقع أمام عينه، ويجالس أهل المعاصي ولا ينكر عليهم، ولا يبلغ عنهم، ألا يكون ذلك مثل قول الله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (المائدة).

- أحسنت يا أبا الوليد، الناس في المعاصي قسمان، مستور لا يُعرف بشيء من المعاصي، ومجاهر مشتهر بالمعاصي، أما من ستر نفسه، إن اطلعت عليه يرتكب المعصية، استره وربما تنصحه فيما بينك وبينه، ولا تتحدث عن معصيته. عن أحمد بن حنبل: قال المروزي: قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: اطلعنا من رجل على فجور، وهو يتقدم يصلي بالناس، أخرج من خلفه؟ قال: أخرج من خلفه خروجاً لا تفحش عليه.

قال الإمام النووي: المعروف بالأذى والفساد يستحب ألا يستر عليه، بل ترفع قضيته إلى ولي الأمر إن لم يخف من ذلك مفسدة، هذا كله في ستر معصية وقعت وانقضت. أما معصية رآه عليها وهو بعد متلبس بها، فتجب المبادرة بإنكارها عليه ومنعه منها على من قدر على ذلك، ولا يحل تأخيرها؛ فإن عجز لزمه رفعها إلى ولي الأمر إذا لم تترتب على ذلك مفسدة. إذا كان الواجب عليه ستر عيوب عامة الناس الذين لا يجاهرون بالمعاصي، فإن العلماء وولاة الأمور أولى الناس بستر العيوب.

روى أبو داود عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «أقبلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود» (صحيح أبي داود).

قال صاحب كتاب عون المعبود: اعفوا عن أصحاب المروءات والخصال الحميدة، وذوي الوجوه من الناس، الذين لا يجاهرون بالمعاصي، ولكن تقع منهم بعض الزلات.

روى أحمد عن عياض بن غنم أن رسول الله ﷺ قال: «من أراد أن ينصح لسلطان بأمر فلا يبد له علانية، ولكن ليأخذ بيده فيخلو به، فإن قبل منه فذاك وإلا كان قد أدى الذي عليه له» (المسند) (حسن لغيره). وخلاصة الأمر يا أبا الوليد أن كل ابن آدم خطاء، وليس من أحد إلا وله خطأ لا يحب أن يطلع عليه أحد من الناس؛ ولذلك كان الستر على الناس خلقاً وهدياً نبوياً؛ لما فيه من حفظ عورات المسلمين وسترهم والإمسك عما يسوؤهم.

شكر الناس

- هو الاعتراف الصادق بالجميل، يبدأ بالقلب ويمر على اللسان، ويترجم بالأفعال، خلق رفيع ينبغي أن يتحلى به المؤمن على الدوام، فيكون ممتناً لله - عز وجل - أولاً، ولرسول الله ﷺ ثانياً، ولكل من له يد عليه، من والدين، وزوج وأخ وقريب أو بعيد، نقيضه النكران، وهو أقبح ما يمكن للعبد أن يتخلق به تجاه من أحسن إليه! وهو خلق اللئام كما قال المتنبي:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

- أظن حديث النبي ﷺ في النساء يمثل هذا الخلق.

- أي حديث تعني؟

- حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أرئت النار فإذا أكثر أهلها النساء، يكفرن»، قيل: أيكفرن بالله؟ قال ﷺ: «يكفرن العشير ويكفرن الإحسان! لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأيت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط!» (متفق عليه).

- أحسنت، نعم خير مثال لجحود خير الآخر.

علق صاحبي مبتسماً:

- أراك، أعجبك هذا الحديث!

- بل كل أحاديث النبي ﷺ تعجبني، وكلها حق نؤمن به.

كنت وصاحبي، في طريقنا لزيارة أحد المسؤولين نشكره على سعيه لإقامة مدرسة إسلامية في تنزانيا.

- كما إن الإمتنان مطلوب؛ فالمنّة مذمومة؛ فلا ينبغي لأحد أن يمنّ على أحد إذا عمل له معروفاً، كما قال -تعالى-: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

﴿٢٦٤﴾ (البقرة).

استدركت على صاحبي:

- والآيتان قبلها تكملان المعنى.

- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

﴿٢٦٣﴾ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنيٌ حلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ (البقرة).

- نعم.. الشاهد أن العبد ينبغي أن يعترف بإحسان من أحسن إليه ويقر بهذا في قلبه، ويشكره بلسانه، ويكافئه بعمله، كما في حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «من سأل بالله فأعطوه، ومن استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه؛ فإن لم تجدوا ما

تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه» (صحيح أبي داود)، وأقله أن يقول له: «جزاك الله خيراً» بصدق، كما في الحديث عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «من صنَّع إليه معروف فقال لفاعله (جزاك الله خيراً)، فقد أبلغ في الشاء» (السلسلة الصحيحة).

وهذا الشكر للناس، إنما هو جزء من شكر الله -عز وجل-، وهدى النبي ﷺ، ومن مكارم الأخلاق، كما في حديث أبي سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» في رواية أخرى: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» (صحيح أبي داود).

- نعم، وشكر الناس والاعتراف لهم بإحسانهم يورث المحبة والرضا عند الناس، ونكران الجميل يورث القطيعة والكُره بين الناس ولا ينكر المعروف إلا لئيم مكابر، فاقد لمكارم الأخلاق، التي أمرنا بها.

وصلنا إلى مكتب صاحبنا الذي نريد، لم تدم زيارتنا له أكثر من عشر دقائق، بكل ما فيها من ضيافة وترحيب، أبدى تقديره لزيارتنا وترحيبه بأي مساعدة أخرى يستطيع أن يقوم بها.

- إن شعور الامتنان يملأ القلب راحة وطمأنينة، ورضاً وقناعة، ابتداء من شعور الامتنان لله -عز وجل- بما تفضل به علينا من نعم لا نحصيها، ينبغي أن يُذكر أحدنا نفسه كل يوم بنعم الله عليه، يستيقظ بهذا الشعور، ويأوي إلى فراشة بهذا الشعور، ويعيش يومه كله ممتناً لله -عز وجل- على نعمه، ويشعر بالامتنان لرسول الله ﷺ أن كان سبباً للهداية إلى الحق،

والنجاة من النار، والفوز بالجنة، ولا تزال سنته سبباً للثبات على الحق، ويوم القيامة، تتم النعمة بشفاعته ﷺ... وكذلك الشعور بالامتنان للوالدين، وشكرهما مقرون بشكر الله.

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ (١٤) ﴿ لقمان، وللزوجة أولى الناس بشعور الامتنان هو زوجها، فتحذر أن تكون ممن يكفرن العشير.

- وماذا عن قول الله -تعالى-: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٦٤) ﴿ (آل عمران)؟

وَجْهٌ مِّنْهُ -تعالى- بالرسول ظاهر؛ لأنه داع إلى ما ينجيهم من المخاوف، وهاد إلى ما هو نافعهم، ووجه الامتنان بكون الرسول من أنفسهم عُلِمَ مما مر آنفاً من سهولة فهم نبوته وأخذ شريعته وجميع أحواله؛ فالامتنان هنا بشيئين: أصل الرسالة والمجانسة، بل فيه إشارة إلى أعظمية المجانسة في المنّة؛ لما ذكر من أن المقصود بالإفادة في الكلام ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ ليهديهم إلى صراط سوي ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم من نجس الكفر وذنس المعصية، ووسخ الخبائث، وفحش الطباع، وسوء الاعتقاد. (التحرير والتنوير).

ولابن القيم كلام رصين في (الفوائد)؛ إذ يقول: «النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها ولا يشعر

بها». وتتمام النعمة الأولى يكون بالشكر عليها، أما الثانية فيكون بالدعاء والاجتهاد بالطاعة، في حين أن الثالثة هي خلاصة الامتنان، وثمره باطنة بين العبد وربّه.

حين تستشعر الامتنان فإن أداءك للفرائض لا يعكس امتثالاً للشريعة فحسب، بل يصبح سعياً نحو المزيد من القرب، وتغذية الروح بما ترمي إليه الجوارح من معاني المحبة والتذلل والخضوع، وحين يغمرك الامتنان يتملك نفسك توق شديد للتضحية بكل شيء في سبيل مرضاته -تعالى- ولا يكون حالك في الدنيا إلا كحال الراكب استظل بظلّها ثم ارتحل!

وأكد الله -سبحانه- في سورة الرحمن بالآية المباركة: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾، قاعدة عامة في الامتنان، لا جزاء للإحسان إلا بالإحسان.

النُّصْحُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ

- ما معنى «نصح» في اللغة؟

- «النصح» كلمة تحمل معاني كثيرة، منها الإخلاص والصدق والنقاء والصفاء؛ فتقول: «نصحت له» أي أخلصت وصدقت، ويقال: «نصح المعدن» أي صفا ونقي، وكذلك تحمل هذه الكلمة معنى الإصلاح والنماء، يقال: «نصح الغيث البلاد نصحاً»، إذا اتصل نبتها فلم يكن فيه فضاء ولا خلل (لسان العرب). وقال ابن الأثير: النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة «إرادة الخير للمنصوح له».

صاحبي مولع باللغة العربية رغم أنه طبيب جراح؛ بل استشاري متميز في مجال عمله، ولكنه يعشق اللغة والشعر، يتحدث كما أهل الاختصاص.

تابعت حديثي معه:

- لقد بينَّ الله -تعالى- أن (النصح) وظيفة الأنبياء، وهو من مكارم الأخلاق التي بعث نبينا ﷺ ليتممها، وهي وظيفة أتباع الأنبياء والصالحين في كل أمة. قال -تعالى- عن نوح عليه الصلاة والسلام:- ﴿أَبْلِغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ (٦٢) (الأعراف)، وعن هود -عليه السلام-: ﴿أَبْلِغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (٦٨) (الأعراف)، وعن صالح -عليه السلام-: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (٧٩) (الأعراف).

قاطعني:

- هذه كلها في سورة الأعراف، وفي غيرها؟

سؤال جميل دعني أبحث لك: وردت كلمة (نصح) ومشتقاتها أربع عشرة مرة في القرآن الكريم، منها: في سورة يوسف ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ (يوسف)، وفي سورة القصص: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ (القصص)، وأيضا في القصص: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (القصص)، وفي سورة التوبة: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ (التوبة)، وفي سورة التحريم: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ (التحريم).

- نعم هذه الآيات تحمل المعاني المتعددة لكلمة (نصح).

كنت وصاحبي نتحاور بانتظار اثنين من الإخوة، أحدهما مسلم ألماني يزور الكويت لأول مرة، بدعوة من أبي محمد (مرافقه)؛ كان قد تعرف عليه أثناء وجوده للعلاج في ألمانيا قبل سنتين.

- والنصيحة (عبادة) ينبغي أن يحرص عليها المسلم ويؤديها وفق هدي النبي ﷺ؛ فقد كان يبايع أصحابه على النصح لكل مسلم، في حديث جرير بن عبدالله البجلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، والنصح لكل مسلم» (متفق عليه).

- أظن أن الحديث الآخر، أشمل: «الدين النصيحة»!

- أحسنت سبقتني إليه كما تفعل دائماً!

نعم هذا الحديث يرويه تميم الداري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» (مسلم).

قال ابن الجوزي: «اعلم أن النصيحة لله -عز وجل-: المناضلة عن دينه، والمدافعة عن الإشراف به وإن كان غنياً عن ذلك، ولكن نفعه عائد على العبد، وكذلك النصح لكتابه: الذب عنه والمحافظة على تلاوته، والنصيحة لرسوله: إقامة سنته والدعاء إلى دعوته، والنصيحة لأئمة المسلمين: طاعتهم، والجهاد معهم، والمحافظة على بيعتهم، وإهداء النصائح إليهم دون المدائح التي تغر، والنصيحة لعامة المسلمين: إرادة الخير لهم، ويدخل في ذلك تعليمهم وتعريفهم اللازم، وهدايتهم إلى الحق» (كشف المشاكل من حديث الصحيحين).

وهذا الحديث أحد الأحاديث الأربعة التي عليها مدار الإسلام.

استدرك علي:

- وما الأحاديث الثلاثة الأخرى؟

- حديث عمر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات» (متفق عليه). وحديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» (متفق عليه)، وحديث النعمان بن بشير رضي الله عنه: «الحلال بين والحرام بين» (متفق عليه).

وبعضهم اكتفى بهذه الأحاديث الثلاثة دون الحديث الذي نتحاور حوله.

- وهل النصيحة للمسلم واجبة، أم هي من نافلة العمل؟

- للإمام أحمد (إمام أهل السنة) أن النصح للمسلم واجب وإن لم يسأله، وفي حديث أبي هريرة في صحيح مسلم: «حق المسلم على المسلم ست وفيه: فإذا استنصحك فانصح له»؛ فالنصيحة بين هذا وهذا.

وفي شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين -رحمه الله-:

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: (باب النصيحة) النصيحة: هي بذل النصح للآخر، والنصح معناه أن الشخص يحب لأخيه الخير، ويدعوه إليه، ويبينه له، ويرغبه فيه، وضد النصيحة المكر والغش والخيانة والخديعة.

ثم صدر المؤلف هذا الباب بثلاث آيات. الآية الأولى: قوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، أي: إذا تحقق فيهم الأخوة

واتصفوا بها، فإنه لا بد أن تكون هذه الأخوة مثمرة للنصيحة، أما الآية الثانية: فهي قول نوح -عليه السلام- (وهو أول الرسل)، يقول لقومه -حين دعاهم إلى الله تعالى-: ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٢) (الأعراف)، يعني لست بغاش لكم، ولا بخادع، ولا بغادر، ولكني ناصح. أما الآية الثالثة: فقول الله -تعالى- عن هود -عليه السلام-: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (٦٨) (الأعراف)، وعلى كل حال يجب على المرء أن يكون لإخوانه ناصحاً مبدياً لهم الخير، داعياً لهم إليه، حتى يحقق بذلك الأخوة الإيمانية، والله الموفق.

وصل (أبومحمد) وصاحبه الألماني، مرتدياً الثياب الكويتية، كاملة مع الغترة والعقال، بلحية شقراء وعيون زرقاء!

بعد الترحاب اللازم، ولاسيما بالضيف الألماني، أردنا أن ننهي نقاشنا.

- فالنصيحة واجبة لعموم المسلمين وهي في حق الأرحام أو جب من غيرهم وفي حق الجار أكد من البعيد. وقد توجد النصيحة، وقد يبذلها ناصح مشفق أمين، ومع ذلك لا تجد أفئدة مصغية، ولا آذاناً واعية؛ بل إن هناك من يردها ويزري بمن أسداها، وربما أساء الظن بالناصر، وناصره العدا، وأضمر له الشر.

ومع ذلك فلا ينبغي للمرء ترك النصح، بل عليه أن يستمر عليه، وأن ينوع في أساليبه؛ فالنصيحة واجبة كما مر، ويدفع الله بها من البلاء ما لا يعلمه إلا هو؛ فقد يرتدع المنصوح، وقد يخف شره. وإذا لم تُجدِ النصيحة

مع شخص ما فلا يعني أنها لا تجدي مع كل أحد، ثم على المنصوح أن يتقبل النصيحة بقبول حسن، وأن يحسن الظن بمن نصح له، وأن يشكره على حرصه ومبادرته، بل عليه أن يتلقى من يهدي إليه شيئاً من عيوبه بالبشر والفرح، وأن يضمّر له المحبة والمودة؛ فإصلاح النفس لا يتأتى بتجاهل عيوبها، ولا بإلقاء الستار عليها، والعاقل اللبيب يفرح بالنقد الهادف كفرحه بالثناء الصادق.



التغافل

«من عجائب الأخلاق أن الغفلة مذمومة، واستعمالها محمود، وإنما ذلك لأن من هو مطبوع على الغفلة يستعملها في غير موضعها، وهو مغيب عن فهم الحقيقة، فدخلت تحت الجهل فذمّت لذلك، وأما المتيقظ الطبع، فإنه لا يضع الغفلة إلا في موضعها الذي يذمّ فيه البحث والتقصي... والتغافل، فهماً للحقيقة، وإضراراً عن الطيش، واستعمالاً للحلم، وتسكيناً للمكروه، فلذلك حُمدت حالة التغافل وذمّت الغفلة».

- عبارة جميلة.. من أين اقتبستها؟!

- كتاب الأخلاق والسَّير.. لابن حزم الأندلسي...

- «ابن حزم»... شيخ الأندلس.. ومذهب الظاهرية.. قرأت له كتاب «طوق الحمامة»، و«الفصل في الملل والنحل»، و«در القواعد في فقه الظاهرية».. كنت وصاحبي في مكتبة المسجد.. بعد صلاة ظهر الخميس.. صياماً.

- كل هذه الكتب التي تزيد على ألف كتاب.. تم جمعها في قرص أصغر من البنصر...

- هذه نعمة من رب العالمين... جعلت البحث أسهل والوصول إلى المعلومة أسرع وأدق...

- ماذا عن التغافل؟ أظن أنني أحتاج أن أدرب نفسي عليه.. أشعر أنني دقيق في كل شيء... وأحب أن أجد تفسيراً منطقياً لكل تصرف...
- لم أكن أعلم أنك كذلك..

- نعم... لدي هذا الطبع... معظم الأوقات...

روى البيهقي في شعب الإيمان في مناقب الإمام أحمد عن عثمان بن زائدة قال: العافية عشرة أجزاء تسعة منها في التغافل.. فحدثت به أحمد بن حنبل فقال العافية عشرة أجزاء كلها في (التغافل)!!

ينبغي على المرء أن يغض الطرف... ويتجاهل... الزلات والأخطاء.. والعيوب. وألا يدقق.. ويتابع.. ويحاسب على كل شيء... «فيمرر» الأمور التي قد تضايقه... كأنها لم تحدث... ولم تقع... ويقبل العذر.. ويقبل العثرة... يُنسب إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال:

شرط الصحبة... إقالة العثرة ومسامحة العثرة والمواساة في العسرة..

شاركنا المجلس مؤذن مسجدنا... (أبو حفص)... دخل في الحوار

مباشرة..

- ألم يرد في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن المشركين كانوا يسبون النبي صلى الله عليه وسلم فيقول صلى الله عليه وسلم لأصحابه... «ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؟ يشتمون مذمماً ويلعنون مذمماً... وأنا محمد».

وكذلك في حادثة سلام اليهود عليه صلى الله عليه وسلم في المدينة من حديث

عائشة... عندما دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقالت عائشة: السام عليكم.. وفعل الله بكم وفعل.. فقال ﷺ: «مه يا عائشة، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش».. فقلت: يا رسول الله أأست ترى ما يقولون؟ فقال ﷺ: «أأست ترى ما يقولون؟ أأقول وعليكم». (متفق عليه)

عقب صاحبي:

- وهل يكون التغافل مع الأعداء أيضاً؟!

قالها مستغرباً...

- نعم... إن كانت هناك مصلحة... ولا يقع أذى من فعلهم!!

- قال النووي في شرح هذا الحديث.. قول النبي ﷺ مهلاً يا عائشة...

استحباب تغافل أهل الفضل عن سفة المبطلين إذا لم يترتب عليه مفسدة!!!

- يقول الإمام ابن القيم في التغافل... «من أساء إليك ثم جاء يعتذر من

إساءته فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرتة حقاً كان أو باطلاً وتكل

سريرته إلى الله». (مدارج السالكين ج ٢)

وذلك أن قبول الأعدار... من التغافل..

عقب أبو حفص...

- وفي كتاب الله.. في وصف عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ

يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ (الفرقان)...
 وكذلك.. ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ
 سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَاهِلِينَ ﴾ ﴿٥٥﴾ (القصص).

وفي قصة يوسف... عندما قال أخوته: ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ
 سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ
 شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾ (يوسف).

- وفي مصنف ابن الأثير.. وصف صلاح الدين الأيوبي - «وكان - رحمه
 الله - حليماً حسن الأخلاق متواضعاً صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن
 ذنوب أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه».

وكانت العرب تردد...

ليس الذكي بسيد في قومه

لكن سيد قومه المتغابي

أي المتغافل عن زلاتهم!!!

- نعم.. إن حُسن الخلق... يتطلب الفطنة والتغافل.

- لعلَّ معظم مشكلات المتزوجين حديثاً... وخاصة الشباب.. ناتجة
 عن تتبع الزلات.. والمحاسبة.. والتدقيق.. مع أن الحياة الزوجية أحوج
 ما تكون إلى التغافل... الكل يقع منه التقصير.. وخاصة المرأة حديثه
 الزواج... فإن لم يتغافل الزوج عن تقصيرها لا تدوم العشرة!!! حتى وإن

طالت العشرة.. ينبغي على الزوج.. أن يكون حليماً.. رقيقاً.. متغافلاً..
مقبلاً للعثرات.. وإن لم تعتذر الزوجة!!

في الحديث أن النبي ﷺ كان عند بعض نساءه فأهدى بعضهنَّ إليه طعاماً
فضربت يد الخادم، فسقطت الصحيفة فانفلقت فجمع الطعام ويقول: «غارت
أمكم»، ثم أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها فدفعتها إلى التي كُسرت
صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرتها. (رواه البخاري من حديث
أنس)، ولأحمد وأبي داود والنسائي من حديث عائشة رضي الله عنها: ما رأيت
صانعاً طعاماً مثل صافية، صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً فبعثت به، فأخذني
أفكل (أخذتني رعدة من شدة الغيرة)، فكسرت الإناء، ثم ندمت فقلت يا
رسول الله: ما كفارة ما صنعت؟ فقال: إناء مثل إناء، وطعام مثل طعام».

ولو حصلت هذه الحادثة عند أحد شباب اليوم لطلق زوجته في حينها!!

- إليكم بعض الأقوال في التغافل:

قال بعض الحكماء: وجدت أكثر أمور الدنيا لا تجوز إلا بالتغافل.

وقال أكثم بن صيفي: من شدد نَفْرًا، ومن تراخى تألّفًا، والشرف في
التغافل.

وقال شبيب بن شبيبة الأديب: العاقل هو الفطن والمتغافل.

وقيل لبعض العارفين: ما المروءة؟ قال: التغافل عن زلة الإخوان.

وأعرض عن الجاهلين!

مكارم الأخلاق لا تعدو أن تكون عفواً عن اعتداء، أو غصاً عما لا يلائم، أو فعل خير واتساماً بفضيلة، وهذه الثلاثة اجتمعت في قول الله -تعالى-: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف)، قال جعفر بن محمد: «في هذه الآية أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها».

كنا في طريقنا إلى المنطقة الشمالية من الكويت؛ حيث مزارع (العبدلي) القريبة من الحدود العراقية؛ نلبي دعوة أخ لوليمة عشاء بمناسبة تخرج ابنه من (كلية الشرطة). المتحدث شيخنا (أبو جراح) يجيب عن سؤال صاحبي، الذي كان يشتكي من جاره، كثير الأذى، سليط اللسان، لا يراعي كبار السن ولا الجيران، ولا يتورع عن ضرب خدم جيرانه إذا هم ارتكبوا أي خطأ، أو تجاوزوا شيئاً من وجهة نظره.

- هذا ترفع أمره إلى الجهات الرسمية إذا اعتدى على أحد..

- قمنا بذلك مرات عدة، ويتعهد ثم يعود، حتى قررنا جميعاً أن نتجاهله، ولا نتعامل معه ولا مع أبنائه، إنه من الجاهلين!

- في صحيح البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة؛ فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من نفر الذين يدينهم عمر رضي الله عنه، وكان القراء أصحاب مجلس عمر رضي الله عنه ومشاورته كهولاً وشباناً؛ فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند

هذا الأمير فاستأذن لي عليه؛ فاستأذن؛ فأذن له عمر؛ فلما دخل قال: هيه يا ابن الخطاب! فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل؛ فغضب عمر رضي الله عنه حتى همَّ أن يوقع به؛ فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله -تعالى- قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) (الأعراف)، وإن هذا من الجاهلين! والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله -تعالى-.

قال ابن عثيمين في شرح رياض الصالحين:

«لما قال الرجل هذا الكلام لعمر رضي الله عنه: إنك لا تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل، غضب رضي الله عنه غضباً حتى كاد يوقع به، أي: يضر به أو يبطش به، ولكن الحر بن قيس قال له: يا أمير المؤمنين، إن الله -تعالى- قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) (الأعراف)، وإن هذا من الجاهلين؛ فوقف عمر رضي الله عنه ولم يتجاوزها؛ لأنه كان وقافاً عند كتاب الله رضي الله عنه فوقف، وما ضرب الرجل وما بطش به؛ لأجل الآية التي تليت عليه، وانظر إلى أدب الصحابة -رضي الله عنهم- عند كتاب الله؛ لا يتجاوزونه، إذا قيل لهم هذا قول الله وقفوا، مهما كان؛ فقوله -تعالى-: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي: خذ ما عفا من الناس وما تيسر، ولا تطلب حقه كله؛ لأنه لا يحصل لك، فخذ منهم ما عفا وسهل.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: الأمر بما عرفه الشرع وعرفه الناس، ولا تأمر بمنكر، ولا بغير العرف؛ لأن الأمور ثلاثة أقسام:

١- منكر يجب النهي عنه.

٢- وعرف يؤمر به.

٣- وما ليس بهذا ولا بهذا فإنه يسكت عنه.

وأما قوله: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٣٩)، فالمعني: أن من جهل عليك وتطاول عليك فأعرض عنه، ولا سيما إذا كان إعراضك ليس ذلاً وخنوعاً. مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإن إعراضه ليس ذلاً ولا خنوعاً، فهو قادر على أن يبطش بالرجل الذي تكلم، لكن امتثل هذا الأمر وأعرض عن الجاهلين.

والجهل له معنيان:

أحدهما: عدم العلم بالشيء.

والثاني: السفه والتطاول، ومنه قول الشاعر الجاهلي:

أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا

فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

أي لا يسفه علينا أحد ويتطاول علينا فنكون أشد منه، لكن هذا شعر جاهلي! أما الأدب الإسلامي فإن الله -تعالى- يقول: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت)، سبحانه الله! إنسان بينك وبينه عداوة قد أساء إليك، ادفع

بالتى هي أحسن، فإذا دفعت بالتى هي أحسن فوراً يأتيك الثواب والجزاء: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت)، وقوله: (ولي حميم) أي قريب صديق في غاية ما يكون من الصداقة والقرب، والذي يقول هو الله -عز وجل- مقلب القلوب، ما من قلب من قلوب بني آدم إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن -عز وجل- يصرفه كيف يشاء.

فمن أعرض عن الجاهلين: حمى عرضه وأراح نفسه، وسلم من سماع ما يؤذيه. وقال الشافعي:

إذا سبني نذل تزايدت رفعة

وما العيب إلا أن أكون مسابه

ولو لم تكن نفسي علي عزيزة

لمكنتها من كل نذل تحاربه

كان شرح شيخنا مسهبا، ممتعا، وقد آنسنا طوال المسافة.

- هل يدخل حديث النبي ﷺ: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً»؟! -

- بالتأكيد هذا جزء من حديث أبي هريرة.. قال رسول الله ﷺ: «ما

نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع عبد إلا رفعه الله» (صحيح مسلم)، كان (أبو طارق) هو الذي يتولى قيادة المركبة، يتتبع إرشادات خرائط (جوجل).

دعوني أقرأ لكم ما ورد في تفسير السعدي لهذه الآية.. ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف).

هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس؛ فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو أي ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم.

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك إما: تعليم علم أو حث على خير أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، ولما كان لا بد من أذية الجاهل أمر الله -تعالى- أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابله بجهله؛ فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرملك لا تحرمه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه.

وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناساً من أشرف العرب في القسمة فقال رجل: والله إن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله؛ فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ، فأتيته فأخبرته بما قال، فتغير وجهه حتى كان

كالصرف! ثم قال: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ ثم قال: يرحم الله موسى قد أؤذي بأكثر من هذا فصبر، قلت: (الصرف) بكسر الصاد المهملة وإسكان الراء وهو صبغ أحمر.

والكاظمين الغيظ

- لا شك أن الأصل في الأخلاق أنها مكتسبة، وأنها من عمل العبد وكسبه، ولذلك يُثاب عليها.. أو.. يعاقب!!

- ولكن بعض الناس أخلاقهم حسنة بالفطرة..

- هذا صحيح، كما في حديث الأشج عبد القيس... قال له الرسول ﷺ: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة» فقال: أخلقين تخلّقت بهما؟ أم خلقين جبلت عليهما؟ فقال ﷺ: «بل خلقين جُبلت عليهما».. فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبها الله ورسوله. (صحيح أبي داود)

هذا الحديث دليل على أن المرء يكتسب معظم أخلاقه.. ومن كان لديه خُلق حسن بالفطرة فليشكر الله عز وجل، ويحافظ على هذا الخُلق لأنها نعمة عظيمة... والحديث الآخر.. عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه». (السلسلة الصحيحة).

وعن أبي سعيد الخدري: «ومن يستعفف يعفه الله عز وجل ومن يتصبر يصبره الله». (متفق عليه)، هذه الأحاديث وغيرها تبين أن المرء يسعى لاكتساب الأخلاق الحميدة، ويجاهد نفسه عليها.. ويعينه الله على ذلك.. ويعمل كل ذلك بإخلاص ورجاء الثواب العظيم لمن (حسن خُلقه).

صاحبي... أكثر الناس هدوءاً... لم أره يوماً يغضب على أحد... ولا يرفع صوته... على أحد... أغبطه على (حلمه).

في أشهر الصيف (٦ و ٧ و ٨ و ٩)... تصل درجة الحرارة إلى أرقام قياسية في الكويت... حتى تكون أحياناً... ودون مبالغة... أسخن بقعة على سطح الأرض... تطلب الجهات المسؤولة... الاقتصاد في استهلاك الكهرباء... فتخفف درجة التكييف والإضاءة في المساجد...

بعد صلاة العصر.. شعرت أن إمامنا منزعج... جلست معه وصاحبي (الحليم).. بعد أن غادر المصلون... أخبرني أن أحد المصلين... أتى مبكراً وأخذ يوبخ المكلف بالنظافة في المسجد... وكاد يضربه... تدخلت.. رفع صوته عليّ.. ونهرني.. بكلمات شديدة... لتخفيف التكييف وعدم الإضاءة كاملة... كظمت غيظي ولم أجبه... فغادر المسجد وتعهد ألا يصلي معنا!!! وسيشكونا إلى المسؤولين..

- متى حصل ذلك؟...

- قبل الصلاة... هذه الصلاة... صلاة العصر...

- ابتداء... جزاك الله خيراً على كظم غيظك وعدم الرد... واحتسب ذلك عند الله... وفي كل مسجد تجد أحدهم يتصرف بهذه الطريقة...

تدخل صاحبي (الحليم)..

- أنت أحفظ منا لكتاب الله ﴿والكاظمين الغيظ﴾.. وحديث أبي

هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال، قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». (صحيح الأدب المفرد)

أخذ صاحبي يورد ثواب كظم الغيظ...

- أولها ما أعدّه الله... ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٢) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ (آل عمران).

قاطعته...

- ما الأصل اللغوي... لـ (كظم الغيظ).

- (الكظم) هو الإمساك والحبس للشيء ومنعه من الخروج... قال القرطبي (كظم الغيظ)... رده في الجوف.. وعدم إظهاره.. والغيظ أول الغضب.. والثانية: حديث النبي ﷺ... عن معاذ بن أنس، قال ﷺ: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله سبحانه على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء». (صحيح الترغيب)

والثالثة: (حسن الخلق.. كظم الغيظ لله).. فكأن كظم الغيظ هو أساس حسن الخلق.. كما تقول (الحج عرفة).. ومن حسن خلقه.. نال جزاء الصائم القائم!!

في صحيح ابن ماجه.. عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال، قال رسول الله ﷺ:

«ما جرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله عز وجل»..

سألت إمامنا..

- هل رددت عليه بشيء؟!!

- كلا.. بل بقيت ساكناً... أتعوذ من الشيطان الرجيم في نفسي..

- خيراً ما فعلت... فهذه وصية رسول الله ﷺ.. عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: «إذا غضب أحدكم فليسكت». (صحيح الجامع)

في تفسير ابن عاشور:

الصفة الثانية: الكاظمين الغيظ. وكظم الغيظ إمساكه وإخفاؤه حتى لا يظهر عليه، وهو مأخوذ من كظم القربة إذا ملاًها وأمسك فمها، قال المبرد: فهو تمثيل للإمساك مع الامتلاء، ولا شك أن أقوى القوى تأثيراً على النفس القوة الغاضبة فتشتهي إظهار آثار الغضب، فإذا استطاع إمساك مظاهرها، مع الامتلاء منها، دل ذلك على عزيمة راسخة في النفس، وقهر الإرادة للشهوة، وهذا من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة.

الصفة الثالثة: العفو عن الناس فيما أساءوا به إليهم. وهي تكملة لصفة كظم الغيظ بمنزلة الاحتراس لأن كظم الغيظ قد تعترضه ندامة فيستعدي على من غاظه بالحق، فلماً وصفوا بالعفو عمّن أساء إليهم دل ذلك على

أنّ كظم الغيظ وصف متأصل فيهم، مستمرّ معهم. وإذا اجتمعت هذه الصفات في نفس سهل ما دونها لديها.

وبجماعها يجتمع كمال الإحسان ولذلك ذيل الله تعالى ذكرها بقوله:
﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤) لأنه دال على تقدير أنهم بهذه الصفات
محسنون والله يحبّ المحسنين.

والعافين عن الناس

- منظر لم يفارق مخيلتي لأكثر من عشرين سنة... كنت في زيارة زميل لي في الرياض... أستاذ في جامعة الملك سعود.. إلتقينا في أحد المؤتمرات العالمية... زارني في الكويت.. وزرته في الرياض أكثر من مرة... ولكن هذه الزيارة كان لها طابع خاص..

أدينا صلاة الجمعة في جامع الإمام تركي بن عبد الله.. (الجامع الكبير) بعد الصلاة اجتمع الناس في ساحة قبالة الجامع (ساحة الديرة أو ساحة الصفاة)... أخبرني صاحبي بأنه سيتم تنفيذ القصاص (بالسيف) ذلك اليوم...

وبالفعل.. أحضر الجاني وأولياء المجني عليه، وممثلون عن الجهات المختصة، وطاقم طبي.. وبدأ بقراءة الحكم بصوت مسموع... وقبل أن ينتهي.. قاطعه أحدهم... بصوت جهوري عال... (نحن نعفو).. (نحن نعفو)..

ضجت الساحة.. بين تكبير وتهليل... واقترب هذا المنادي.. من هيئة تنفيذ الحكم... وأوقف الأمر... مشهد جمع بين الرهبة والاندھاش والاستحسان!!

وكنت وصاحبي وثالث في طريقنا لزيارة صاحبه في الرياض... أدينا صلاة الفجر جميعاً في المسجد القريب من بيته، وانطلقنا بعد الصلاة مباشرة... كان قد جهز ما نحتاج إليه في مركبته ليلاً...

- إنه لعمل عظيم أن يستطيع المرء أن يعفو عمّن ارتكب جريمة في حقه.. هناك مقولة تُنسب إلى عمر بن العزيز...

(أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند المقدره).. أي أن العبد يقتصد اختياراً لأنه قادر على البذخ.. ويعفو رغبة في الأمر بعد أن يتمكن من أخذ حقه كاملاً في الدنيا!!

هذا خلق عظيم من مكارم الأخلاق... كما قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لِمِنَّ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٣) (الشورى)، وكذلك يقول تعالى: ﴿وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٢) (النور).

- هنا يحضرني موقف النبي ﷺ عندما رجع من الطائف.. في الحديث المتفق عليه...

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يومٌ أشد من يومٍ أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يُجِبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلّنتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرِك، فما شئتَ: إن

شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبدُ الله وحده لا يشرك به شيئاً».

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». (متفق عليه) كان مركز الحدود شبه فارغ.. أنهينا إجراءات السفر في الجهتين... تجاوزت الساعة السابعة صباحاً بقليل... توقفنا على جانب الطريق نتناول وجبة الإفطار..

- وحديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يجرح في جسده جراحة فيتصدق بها إلا كفر الله تبارك وتعالى عنه مثل ما تصدق به». (صحيح لغيره)

إن العفو عن الناس بعد أن يتمكن المرء من أخذ حقه... أجره عظيم في الدنيا والآخرة... كما في حديث أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل». (مسلم)

ونحن نحسّي القهوة بعد أن انتهينا من وجبة الإفطار، وقبل أن نجتمع حاجياتنا لمواصلة الطريق...

- دعوني أقرأ لكم شيئاً من شرح الشيخ ابن عثيمين لرياض الصالحين في هذا الباب...

قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنَ عِزِّ الْأُمُورِ﴾ (٤٣) (الشورى):
 (٤٣)، أي: أن الذي يصبر على أذى الناس ويحتملهم ويغفر لهم سيئاتهم
 التي يسيئون بها إليه، فإن ذلك (لمن عزم الأمور)، أي: من معزوماتها
 وشدائدها التي تحتاج إلى مقابلة ومصابرة، ولا سيما إذا كان الأذى الذي
 ينال الإنسان بسبب جهاده في الله - عز وجل - وبسب طاعته، لأن أذية
 الناس لك لها أسباب متعددة متنوعة، فإذا كان سببها طاعة الله - عز وجل
 - والجهاد في سبيله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإن الإنسان
 يثاب على ذلك من وجهين:

الوجه الأول: من الأذية التي تحصل له.

والوجه الثاني: صبره على هذه الطاعة التي أودى في الله من أجلها.

وفي هذه الآية حث على صبر الإنسان على أذية الناس، ومغفرته لهم
 ما أسأؤوا إليه فيه، ولكن ينبغي أن يعلم أن المغفرة لمن أساء إليك ليست
 محمودة على الإطلاق، فإن الله تعالى قيّد هذا بأن يكون العفو مقروناً
 بالإصلاح فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠)
 (الشورى)، أما إذا لم يكن في العفو والمغفرة إصلاح فلا تعف ولا تغفر.

ادفع بالتي هي أحسن!

- هذه قاعدة ربانية، قليل من يطبقها: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت).

هكذا أراد ضيفنا أن يختم خاطرته، في تجمع الأربعاء عند (أبي عبدالرحمن)، هاتفني صاحب الديوان، وأصر أن أحضر ضيفي من المملكة؛ ليلتقي مجموعة من الشباب بعد صلاة العشاء، مع أن -الضيف- أخبرني برغبته أن تكون زيارته للاسترخاء والراحة، وبالفعل قضينا يومين في رحلة بحرية، وأخرى نتجول في أسواق المباركية، قبل ضيفي الدعوة، كانت خاطرة قصيرة دون سابق تحضير، في طريق عودتنا، كنا ثلاثة نفر بدأ الحوار (أبو عاصم):

- هذه خصلة صعبة على كثير من الناس، وأنا منهم، حتى مع أقرب الناس لي، أن أرد السيئة بالحسنة، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت)، تحتاج إلى صبر، وتوفيق من الله -تعالى-. استدرك الشيخ على صاحبي:

- كثير من مكارم الأخلاق يصعب نيلها، ولكن مع الصدق والإصرار والاستمرار ودعاء الله يصل المرء إلى مبتغاه، كما في الحديث: «ومن يتصبر يصبره الله» (صحيح النسائي)، «وإنما الحلم بالتحلم» (صحيح الجامع).

- وأولى الناس أن تتعامل معهم بهذا الأسلوب (رد السيئة بالحسنة) الأرحام من الإخوان؛ لأنهم أكثر من تقع منهم الإساءة، في حديث أبي هريرة رضي الله عنه «أن رجلاً قال يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عليهم ويجهلون علي، فقال: إن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك» (صحيح مسلم).

- أظن أن المرء ينبغي أن يكتسب خلق (الصبر) أولاً، حتى يتمكن من رد السيئة بالحسنة!

- في شرح رياض الصالحين للشيخ (ابن عثيمين) -رحمه الله-: «أما الأدب الإسلامي، فإن الله -تعالى- يقول: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۗ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت)، -سبحان الله-! إنسان بينك وبينه عداوة، أساء إليك، ادفع بالتي هي أحسن؛ فإذا دفعت بالتي هي أحسن يأتيك فوراً الثواب والجزاء، وقوله: ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤)، أي قريب صديق في غاية ما يكون من الصداقة والقرب، والقائل هو الله -عز وجل- مقلب القلوب، ما من قلب من قلوب بني آدم إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن -عز وجل- يصرفه كيف يشاء! فهذا الذي كان عدواً لك ودافعته بالتي هي أحسن، فإنه ينقلب بدل العداوة صداقة ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤).

وقال ابن عثيمين (مكارم الاخلاق): قال -تعالى-: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ

فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ (الشورى)، وكل إنسان يتصل بالناس فلا بد أن يجد من الناس شيئاً من الإساءة، فموقفه من هذه الإساءة أن يعفو ويصفح، وليعلم علم اليقين أنه بعفوه وصفحه ومجازاته بالحسنى، سوف تنقلب العداوة بينه وبين أخيه إلى ولاية، ومحبة، وصداقة، قال -تعالى-:

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت)، وتأملوا أيها العارفون باللغة العربية، كيف جاءت النتيجة بإذا الفجائية؛ لأن (إذا) الفجائية تدل على الحدوث الفوري في نيتها ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت)، ولكن ليس كل أحد يوفق لذلك قال: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ (فصلت). هل نفهم من هذا أن العفو عن الجاني محمود مطلقاً ومأمور به؟

قد يفهم بعض الناس من الآية هذا الكلام، ولكن ليكن معلوماً أن العفو إنما يحمده إذا كان العفو أحمد، فإن كان الأخذ أحمد فالأخذ أفضل؛ ولهذا قال -تعالى-: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ (الشورى)؛ فجعل العفو مقروناً بالإصلاح.

فالعفو أحياناً قد لا يكون فيه إصلاح، فقد يكون هذا الذي جنى عليك واجترأ عليك رجلاً شريراً معروفاً بالشر والفساد، فلو عفوت عنه لتمادى في شره وفساده؛ فالأفضل في هذا المقام أن تأخذ هذا الرجل بجريرته؛ لأن في ذلك إصلاحاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الإصلاح واجب، والعفو مندوب؛ فإذا كان في العفو فوات الإصلاح فمعنى ذلك أننا قدمنا مندوباً على واجب، وهذا لا تأتي به الشريعة» وصدق -رحمه الله-.

تنبيه مهم:

وإنني بهذه المناسبة أود أن أنبه على مسألة يفعلها كثير من الناس بقصد الإحسان، وهي أن تقع حادثة من شخص؛ فيهلك بسببها شخص آخر؛ فيأتي أولياء المقتول فيسقطون الدية عن هذا الجاني الذي فعل الحادث، فهل إسقاطهم للدية محمود ويعدّ من حسن الخلق؟ أم في ذلك تفصيل؟ في ذلك تفصيل، فلا بد أن نتأمل ونفكر في حال هذا الجاني الذي وقع منه الحادث، هل هو من الناس المعروفين بالتهور وعدم المبالاة؟ هل هو من الطراز الذي يقول: أنا لا أبا لي أن أدهس شخصاً؛ لأن ديتي في الدرج -والعياذ بالله-!!.

أم إنه رجل حصلت منه هذه الحادثة مع كمال التعقل وكمال الاتزان، ولكن الله -تعالى- قد جعل لكل شيء قدرًا؟، إن كان من هذا الطراز الأخير فالعفو في حقه أولى. وكمال الإنسان أن يعفو عن ظلمه، ولكن العفو إنما يكون عند القدرة على الانتقام، فأنت تعفو مع قدرتك على الانتقام لأمر:

١ - رجاء مغفرة الله -عز وجل- ورحمته؛ فإن من عفا وأصلح فأجره على الله.

٢ - لاستدامة الود بينك وبين صاحبك؛ لأنك إذا قابلت إساءته بإساءة، استمرت الإساءة بينكما، وإذا قابلت إساءة بإحسان، عاد إلى الإحسان إليك

وخجل. قال -تعالى-: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) (فصلت). فالعفو عند المقدره من مكارم الأخلاق، لكن بشروط: أن يكون العفو إصلاحاً؛ فإن تضمن العفو إساءة، فإنه لا يندب إلى ذلك؛ لأن الله اشترط، فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (الشورى)، أي كان في عفوهِ إصلاح، أما من كان في عفوهِ إساءة أو كان سبباً للإساءة، فهنا نقول: لا تعف! مثل أن يعفو عن مجرم، ويكون عفوهِ هذا سبباً لاستمرار هذا المجرم في إجرامه؛ فترك العفو هنا أفضل، وربما يجب ترك العفو حينئذ، فإذا ما دفع الآخر بالتي هي أحسن، انقلبت العداوة إلى مودة، والبغضة والوحشة إلى محبة وألفة.

وهذه الأمور ليس بالسهل تحصيلها، وليس بمقدور كل إنسان أن ينالها، بل تحتاج إلى توفيق، وتدريب وصبر وشجاعة: ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٣٥) (فصلت).

فإذا أساء إليك أحد من جيرانك، فادفع بالتي هي أحسن؛ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم؛ فذلك من دلائل مروءتك، ومن علامات سؤددك. ولهذا قيل: «مروءة الرجل صدق لسانه، واحتمال عثرات أقرانه، وبذل المعروف لأهل زمانه، وكفه الأذى عن أباعده وجيرانه». ومن الأمثلة التي يناسب ذكرها في هذا المقام، لبيان معنى قوله -تعالى-: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) (فصلت).

قصة ثمامة بن أثال رضي الله عنه ... روى أبو هريرة رضي الله عنه، قال: «بعث النبي صلى الله عليه وسلم

خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة، يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تُنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل ما شئت، فتركه حتى كان الغد، ثم قال له: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: ما قلت لك إن تُنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ قال: عندي ما قلت لك. فقال: أطلقوا ثمامة؛ فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الأديان إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة، قال له قائل: صبوت؟ قال: لا والله، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ ولا والله، لا يأتيكم من الإمامة حبة حنطة، حتى يأذن فيها النبي ﷺ» (البخاري ومسلم).

وتأمل في ذلك حال النبي ﷺ كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدَمَوْهُ، وَهُوَ يَمَسُّحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» وَقِيلَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ هُوَ الْحَاكِي وَالْمَحْكِي عَنْهُ.

كف الأذى

هناك بعض الأشخاص يتجنبهم الناس لسوء أخلاقهم وسلطة ألسنتهم؛ طلبت من خطيبنا أن يكون موضوع خطبته (كف الأذى)؛ فكان مما ذكره -جزاه الله خيراً-:

- إن كف الأذى عن كل مسلم عبادة جلييلة، دلّ الكتاب والسنة على فضلها وعظم منزلتها، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله أي الإسلام أفضل؟ قال - صلى الله عليه وسلم -: «من سلم المسلمون من لسانه ويده» (متفق عليه) وفي صحيح الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يتناجى اثنان دون واحد؛ فإن ذلك يؤذي المؤمن، والله -عز وجل- يكره أذى المؤمن»، والشاهد (أن الله -عز وجل- يكره أذى المؤمن).

كانت خطبة قصيرة مائعة، اجتمعنا بعدها في مكتبة (أبي عبدالله) كعادتنا عقب كل جمعة.

- لقد أجاد وأصاب أبو عمر في خطبته.

- لعل هؤلاء يتعظون، دعونا نسترجع بعض ما ورد في الخطبة.

عن أبي ذر قال: قلت: يا نبي الله أي العمل أفضل قال صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله، قال: قلت: أي الرقاب أفضل يا نبي الله؟ قال: أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنًا، قال: قلت: رأيت إن لم أفعل، قال: تعين ضعيفاً أو تصنع لأخرق، قال: قلت: رأيت إن ضعفت، قال: تكف شرك

عن الناس فإنه صدقة منك على نفسك» (متفق عليه) وفي الصحيحين:
«من سلم المسلمون من لسانه ويده».

- (كَفَّ الْأَذَى) عبادة يؤجر عليها العبد، كما أنه يأثم إذا آذى إخوانه،
وحديث الصَّوَّامَةِ الْقَوَّامَةِ معروف رواه الإمام أحمد في مسنده، عن أبي
هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قال رجل يا رسول الله، إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها
وصدقتها وصيامها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هي في
النار، قال: يا رسول الله، فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصلاتها وأنها
تتصدق بالأنوار من الإقط ولا تؤذي جيرانها، قال: هي في الجنة» (صحيح
الترغيب).

شاركنا المجلس مؤذننا (أبو أحمد)، قبل أن يأخذ مجلسه، أدلى بدلوه.

- وحديث ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: صعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنبر
فنادى بصوت رفيع فقال: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان
إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه
المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله»،
ونظر ابن عمر -رضي الله عنهما- إلى الكعبة فقال: «ما أعظمك وما أعظم
حرمتك! والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك!» (الترمذي (صححه الألباني)).

- أحسنت يا أبا أحمد، وحديث المفلس يعرفه الجميع، وهو في
صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أتدرون من المفلس؟
قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: إن المفلس من أمتي

يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا؛ فيُعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرح عليه، ثم طرح في النار».

- المشكلة أن الأذى المعنوي أشد من الأذى البدني، أذى اللسان أشد من أذى اليد، الغيبة والنميمة والسب والقذف والسخرية وشهادة الزور واللغو، كل هذا مصدره اللسان، وهي من الذنوب التي لا تغفر يوم القيامة، وإنما مدارها على المقاصة كما في حديث المفلس، وهي من الذنوب التي لا يتبها لها كثير من المسلمين؛ وبذلك نفهم قول النبي ﷺ، في حديث معاذ، قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير؛ فقلت يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال ﷺ: «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ قوله - تعالى -: ﴿ نَتَجَاوَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾، ثم قال ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده وذروة سنامه؟ فقلت: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ فقلت له: بلى

يا نبي الله، فأخذ بلسانه فقال: كُف عليك هذا؛ فقلت: يا رسول الله، وإنّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكبّ الناس على وجوههم في النار، أو قال: على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟» (السلسلة الصحيحة).

قال ابن عثيمين في (مكارم الاخلاق): أما حُسن الخلق مع المخلوق فعرفه بعضهم بأنه كفّ الأذى، وبذل الندى، وطلاقة الوجه. ويذكر ذلك عن الحسن البصري -رحمه الله-، معنى كف الأذى: أن يكف الإنسان أذاه عن غيره سواء كان هذا الأذى بالمال، أو يتعلق بالنفس، أو يتعلق بالعرض، فمن لم يكف أذاه عن غيره فليس بحسن الخلق، بل هو سيئ الخلق، وقد أعلن الرسول ﷺ حرمة أذية المسلم بأي نوع من الإيذاء، وذلك في أعظم مجمع اجتمع فيه بأتمته؛ حيث قال: «إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا» (البخاري).

إذا كان رجل يعتدي على الناس بأخذ المال، أو يعتدي على الناس بالغش، أو يعتدي على الناس بالخيانة، أو يعتدي على الناس بالضرب والجناية، أو يعتدي على الناس بالسب والغيبة والنميمة، لا يكون هذا حَسَن الخلق مع الناس؛ لأنه لم يكف أذاه، ويعظم إثم ذلك كلما كان موجهاً إلى من له حق عليك أكبر، فالإساءة إلى الوالدين مثلاً أعظم من الإساءة إلى غيرهما، والإساءة إلى الأقارب أعظم من الإساءة إلى الأبعد، والإساءة إلى الجيران أعظم من الإساءة إلى من ليسوا جيراناً لك؛ ولهذا

قال النبي ﷺ: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن! قالوا: من يا رسول الله؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقه» (متفق عليه).

معنى بذل الندي: الندى هو الكرم والجود، يعني: أن تبذل الكرم والجود، والكرم ليس كما يظنه بعض الناس أنه بذل المال فقط، بل الكرم يكون في بذل النفس وفي بذل الجاه، وفي بذل المال، وفي بذل العلم. عن الحسن البصري أنه كان بمكة وكثر الناس عليه؛ فقال: أيها الناس، إن سرّكم أن تسلموا ويسلم لكم دينكم، فكفوا أيديكم عن دماء الناس، وكفوا ألسنتكم عن أعراضهم، وكفوا بطونكم عن أموالهم. واعلم: أن حسن الخلق مع المرأة ليس كف الأذى عنها فحسب، بل باحتمال أذاها، والحلم على طيشها وغضبها! وذلك اقتداء برسول الله ﷺ؛ ففي (الصحيحين)، من حديث عمر رضي الله عنه أن أزواج النبي ﷺ كن يراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. والحديث مشهور.

.. لا تغضب!

رجل لا تفوته صلاة جماعة في المسجد، ولا يختلط كثيراً مع المصلين، وله مكانه المعتاد في الجانب الأيمن من الصف الأول، له كرسي وضع عليه مصحفاً كبير الحجم، يقرأ منه قبل صلاة الظهر، والعصر، وبعد صلاة الفجر والمغرب.

قررت أن أمكث في المسجد بين العشاءين، السبت الفائت بعد أن خلا من المصلين، أتاني أبو سعد، بدت عليه علامات عدم الارتياح والضيق، بعد السلام استأذن أن يتحدث معي.

- حياك الله يا (حمامة المسجد)، كليّ آذان صاغية، لم يتفاعل مع ترحيبي.

- دعني أدخل في الموضوع مباشرة، كنت يوم الخميس صائماً، دخلت البيت قبل الأذان بساعة، فإذا ابنتي ذات الخمس عشرة سنة ترقص مع أختها الأصغر، على أنغام تصدر من هاتفها! لم أتمالك نفسي، صرخت موبخاً! أخذت الهاتف، ورميته بشدة على الحائط، أريد كسره، خرجت أمهم إثر الصراخ، ونالت نصيبها من التوبيخ أيضاً! وكذلك أخوهم، لم أترك أحداً، وخرجت من البيت، تفتطرت في المسجد، وتعيشيت في أحد المطاعم، ولم أكلم أحداً إلى اليوم.

سكت (الرجل)؛ فبادرته:

- والآن؟

- لا أدري.

- اسمع مني يا أخي، أنت -ولله الحمد- من أحرص الناس على الصلاة
وتعاليم الكتاب والسنة، وفيك خير كثير، ولكن بصراحة -ولا تغضب مني-
أنت سريع الغضب!

- استغرب الرجل!

تابعت حديثي:

- لقد رأيتك قبل فترة وأنت تعنف ملاحظ المسجد؛ لأنه لم يكن قد
أفرغ سلة المهملات، وكنت شديداً عليه!

لو أنك فقط تملك نفسك حال الغضب، الكل في المسجد يعرف
فيك هذه الخصلة؛ ولذلك لا يختلطون معك كثيراً.

- وهل يتحدثون عن ذلك؟

- كلا، ولكنه الشعور العام، والتصرف العام، والمعروف لدى أكثر
المصلين.

- أستغفر الله، إذا هذه خصلة في ظاهرة للناس، وأنا الوحيد الذي لا
أعرفها؟!!

- كلنا لدينا من النواقص ما لدينا، ولكن نجتهد أن نتعامل معها، وفق
مراد الله ورضاه، هذا هدفنا جميعاً، والأحاديث في (عدم الغضب) كثيرة.

- هات شيئاً منها؛ لعلني أذكر نفسي (الغضوب)!

- أظن أقوى حديث أحفظه لنفسي وأذكره دائماً، حديث عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- أنه سأل رسول الله ﷺ: «ما يباعدني من غضب الله -عز وجل- قال: لا تغضب» وهو في (صحيح الترغيب والترهيب)، وفي شرح هذا الحديث كلام جميل.

في الطبراني من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي «قلت يا رسول الله، قل لي قولاً أتنتفع به وأقلل، قال: لا تغضب، ولك الجنة»، وفيه عن أبي الدرداء «قلت: يا رسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة، قال: لا تغضب»، وفي حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- عند أبي يعلى «قلت يا رسول الله، قل لي قولاً وأقلل لعلني أعقله قال: لا تغضب!».

(فردد مراراً) أي ردد السؤال يلتمس أنفع من ذلك أو أعم فلم يزد على ذلك. في رواية أبي كريب «كل ذلك يقول: لا تغضب!».

وزاد أحمد وابن حبان في رواية عن رجل لم يسمه قال: «تفكرت فيما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله»!!

وفي الحديث عند أنس «أن النبي ﷺ مر بقوم يصطرعون (يتصارعون)! فقال: ما هذا؟ قالوا: فلان ما يصارع أحداً إلا صرعه، قال: أفلا أدلكم على من هو أشد منه؟ رجل كلمه رجل فكظم غيظه فغلبه وغلب شيطانه وغلب شيطان صاحبه». وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند مسلم وأوله: «ما تعدون الصرعة فيكم؟ قالوا: الذي لا يصرعه الرجال، فقال ﷺ: ليس الشديد

بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». وفي رواية أحمد من حديث رجل لم يسمه شهد رسول الله ﷺ يقول: «الصرعة كل الصرعة -كررها ثلاثاً- الذي يغضب فيشتد غضبه ويحمر وجهه فيصرع غضبه».

وقيل لابن المبارك: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة، قال: ترك الغضب. قوله ﷺ لمن استوصاه: لا تغضب! يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون مراده الأمر بالأسباب التي توجب حسن الخلق من الكرم والسخاء والحلم والحياء والتواضع والاحتمال وكف الأذى، والصفح والعفو، وكظم الغيظ، والطلاقة والبشر، ونحو ذلك من الأخلاق الجميلة؛ فإن النفس إذا تخلقت بهذه الأخلاق، وصارت لها عادة أوجب لها ذلك دفع الغضب عند حصول أسبابه.

والثاني: أن يكون المراد لا تعمل بمقتضى الغضب إذا حصل لك، بل جاهد نفسك على ترك تنفيذه والعمل بما يأمر به؛ فإن الغضب إذا ملك ابن آدم كان الأمر والناهي له، فإذا لم يمثل الإنسان ما يأمره به غضبه، وجاهد نفسه على ذلك، اندفع عنه شر الغضب، وربما سكن غضبه، وذهب عاجلاً، فكأنه حينئذ لم يغضب، وإلى هذا المعنى وقعت الإشارة في القرآن بقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشورى).

كان صاحبي منصتاً هادئاً، كأنما يسمع شيئاً جديداً.. مع أنى لا أشك أنه يعرف كل هذه الأحاديث.

- وهل يسكت المرء على معصية في بيته ومن أبنائه؟! -

- كلا، ولكن يعالج المشكلة بهدوء؛ حتى لا تقع مشكلة أكبر، القصد أن يتصرف المرء بوعي وروية، لا تحت تأثير الغضب؛ فإذا أصاب المرء الغضب، يجب أن يتخلص منه أولاً قبل أن يتكلم أو يتصرف؛ ففي الحديث عن سليمان بن صرد قال: «استب رجلان عند رسول الله ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه! فقال النبي ﷺ: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقلوا للرجل: لا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون» (متفق عليه).

تخيل هذا من شدة غضبه لم يستجب لقول النبي ﷺ! قاطعني قائلاً:
- تذكرت حديثاً: «إن الغضب من الشيطان».

- نص الحديث كما يلي يا أخي:

عن عطية بن عروة السعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما يطفئ النار الماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ» رواه أبو داود لكن (ضعفه الألباني).

.. ولا تجسسوا..

- سورة الحجرات هي (سورة الأخلاق)، ثماني عشرة آية، أرست مبادئ التعامل البشري، ابتداء مع الرسول ﷺ، وإلى المؤمنين والبشر جميعاً، وختمت بالتعامل مع الله - عز وجل -.

كنت أناقش وصاحبي موضوع الخطبة في مجلسنا المعتاد بعد صلاة الجمعة.

- بيّن النبي ﷺ مبدأ حسن الظن بعباد الله، بقوله في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن! فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تناجسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»، الشرارة الأولى هي سوء الظن بعباد الله، هذا الظن السيئ، يؤدي إلى كل ما بعده من التجسس والتباغض والتدابير.

كان المجلس أكثر حضوراً من المعتاد، شاركنا بعض رواد المسجد.

- أعجبني حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن الرسول ﷺ: «إذا ظنتم فلا تحققوا، وإذا حسدتم فلا تبغوا، وإذا تطيرتم فامضوا وعلى الله توكلوا، وإذا وزنتم فأرجحوا» (السلسلة الصحيحة) ذلك أني أسمع له لأول مرة.

- نعم؛ حديث جميل، ذكر الداء والدواء، يزول الظن بعدم الاستجابة له، ويزول الحسد بعدم البغي، ويزول التشاؤم بالمضي والتوكل على الله.

كان مؤذنا (أبو إبراهيم) هو الذي يدير النقاش، علق (أبو إسحاق) طالب في السنة النهائية في الشريعة.

- نعم قد يعرض في قلب المؤمن ظن بأخيه لرؤيته في مكان أو سماع كلام أو غيره فيما يوجب الريبة، فلا ينبغي أن يتتبع هذا الظن السيئ ويتجسس ليتحقق من صحته، بل يحسن الظن بأخيه ويوجد له الأعذار وينتهي، أما حديث «احترس من الناس بسوء الظن» (الطبراني في الأوسط والبيهقي وغيرهما)، فهو حديث ضعيف جداً كما ذكر الألباني -رحمه الله-، ذكر ابن عبد البر في كتاب (بهجة المجالس) قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه -: «لا يحل لامرئ مسلم يسمع من أخيه كلمة يظن بها سوءاً، ويجد لها في شيء من الخير مخرجاً».

تركنا الحديث لأبي إسحاق؛ لما لديه من علم شرعي.

تابع حديثه: في (أنيس الجليس):

الواجب على العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس، بل عليه الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه؛ فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنه، ولم يتعب قلبه، فكلماً اطلع على عيب لنفسه هان عليه ما يرى مثله من أخيه، وإن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه وتعب بدنه، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه، وإن من أعجز الناس من عاب الناس بما فيهم، وأعجز منه من عابهم بما فيه.

والتجسس من شعب النفاق، كما إن حسن الظن من شعب الإيمان،

والعاقل يحسن الظن بإخوانه، وينفرد بغمومه وأحزانه، كما إن الجاهل يسيء الظن بإخوانه، ولا يفكر في جنائته وأشجانه. وأمر -سبحانه وتعالى- المؤمنين باجتنب كثير من الظن، وهو كل ظن لم يقم عليه دليل، لأن بعض الظن إثم، قال -تعالى-: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ (الحجرات: ١٢).

قال ابن كثير -رحمه الله-: «يقول -تعالى- ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليجتنب كثيراً منه احتياطاً». وهنا نورد قصة عمر بن الخطاب مع سعيد بن عامر الجمحي (واليه على حمص)؛ إذ قدّر الله لعمر أن يزور هذه البلدة، ويسأل أهلها كيف وجدتم عاملكم؟ فيشكونه له، وكان يقال لأهل حمص: الكوفية الصغرى لشكايتهم عمالهم قائلين:

نشكو أربعا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار، قال: أعظم بهذا! وماذا؟ قالوا: لا يجيب أحداً بليل، قال وعظيمة! وماذا؟ قالوا: وله يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا، قال عظيمة! وماذا؟ قالوا: يغنط الغنطة بين الأيام (أي يغمى عليه ويغيب عن حسه) فلم يفصل عمر في الأمر، إلا بعد أن جمع بينهم وبينه، ودعا ربه قائلاً: «اللهم لا تُقِيل (تُخيب) رأبي فيه»، وكان عمر حسن الظن به، وبدأت المحاكمة؛ فقال عمر لهم أمامه: ما تشكون منه؟ قالوا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار قال: ما تقول؟ قال: والله إن كنت لأكره ذكره: ليس لأهلي خادم فأعجن عجيني، ثم أجلس حتى

يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ، ثم أخرج إليهم؛ فقال: ما تشكون منه؟ قالوا: لا يجيب أحداً بليل قال: ما تقول؟

قال: إن كنت لأكره ذكره: إني جعلت النهار لهم والليل لله -عز وجل، فقال: ما تشكون فيه؟ قالوا: له يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا، قال: وما تقول؟ قال: ليس لي خادم يغسل ثيابي ولا لي ثياب أبدلها فأجلس حتى تجف ثم أدلكها ثم أخرج إليهم من آخر النهار، قال: ما تشكون منه؟ قالوا: يغنط الغنطة بين الأيام قال: ما تقول؟

قال: شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة وقد بضعت قريش من لحمه ثم حملوه على جذعة فقالوا: أتحب أن محمداً مكانك؟ فقال: والله ما أحب أنى في أهلي وولدي وأن محمداً ﷺ شيك بشوكة، ثم نادى يا محمداً؛ فما ذكرت ذلك اليوم وتركي نصرته في تلك الحال وأنا مشرك لا أو من بالله العظيم، إلا ظننت أن الله -عز وجل- لا يغفر لي بذلك الذنب أبداً فتصيبني تلك الغنطة؛ فقال عمر بعد أن أظهر براءته أمامهم الحمد لله الذي لم يفيل فراستي، وبعث إليه بألف دينار وقال: استعن بها على أمرك... ففرقتها».

في التفسير: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ التجسس: هو البحث عن عيوب الناس؛ فنهى الله -تعالى- عن البحث عن المستور من أمور الناس وتبع عوراتهم؛ حتى لا يظهر ما ستره الله منها، وفي الحديث عن نافع عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان

إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورات المسلمين، يتتبع الله عورته، ومن يتتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله». (صحيح الترغيب).

ولا يمكن ان نتحدث عن حسن الظن بالمسلمين دون ذكر حادثة الإفك والفتنة العظيمة التي وقعت بسبب بعض المنافقين ومن أساء الظن من المؤمنين: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (النور).

الاستئذان

صديقي (يوسف) أمريكي... أسلم بعد قدومه إلى الكويت بستين..
سمع عن الإسلام.. منذ أكثر من عشر سنين.. تعرف على المسلمين في
ولايته.. وكانت علاقة طيبة مع جاره السوري (وسام)..

تعرفت عليه في مسجدنا.. لا تفوته صلاة جماعة إذا كان في منزله...
- كلما تعلمت دين الله.. أيقنت أنه الدين الحق.. وأحمد الله أن
هداني.. وأسرتي.. أول ما تأثرت به.. هو خلق جاري في أمريكا.. كان قمة
في الأخلاق بالنسبة للمجتمع الأمريكي.. كثيراً ما يهديني الأكل السوري
اللذيذ.. ويدعوني إلى حديقة منزله... مع أنه لم يحدثني عن الإسلام...
إلا أنه كان خير داع بأخلاقه...

- هل تذكر شيئاً مميزاً أثار دهشتك.. أو جعلك تفكر أن تسأل عن
الإسلام لتتعلمه...

كنت ويوسف.. مدعويين لوليمة عرس في منطقة (النزهة).. بعد صلاة
عشاء يوم الأربعاء..

- نعم.. اتفقت وزوجتي.. أن ندعو جارنا لوجبة العشاء في منزلنا..
وطلبت منها أن تراقب تصرفاته بدقة... أتى في الموعد... طرق.. ووقف
جانباً حتى لا ينكشف على ما في المنزل إذا فُتح الباب... كنا نراقب
شاشات الكاميرا... سألت من في الباب أجاب أنا وسام وزوجتي..

دخل.. صافحني.. وألقى التحية على زوجتي دون مصافحة وزوجته ألفت التحية.. وصافحت زوجتي.. الشاهد أننا تأكدنا أن هذا الدين فيه «تعاليم لكل شيء».. وبالتفصيل..

- نعم يا (يوسف).. هذا الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ ما ترك شيئاً إلا وبينه للناس.. حتى دخول الخلاء والخروج منه!!

- هذا ما تعلمته بعد أن نطقت بالشهادتين ودخلت دين الله أسأله سبحانه أن يثبتني عليه.. وعندما أقرأ القرآن أجد آيات مفصلة في القروض.. وآيات مفصلة في الطلاق.. وآيات الميراث.. وآيات في الاستئذان.. مع أن هذه الأمور تترك للناس... ولكنها في دين الله «عبادة» يتقرب بها العبد إلى الله عز وجل...

- صدقت..

تابع صاحبي حديثه.. بينما بدأت قطرات المطر تزداد.. وتباطأت حركة المركبات..

- آيات الاستئذان عجيبة... بالنسبة لنا نحن الذين دخلنا في الإسلام..

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تُذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فَارجِعُوا هُوَ أَزكى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (النور).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ (النور).

وعندما أقرأ حديث النبي ﷺ في صحيح البخاري: «أن رجلاً اطلع في حجر النبي ﷺ ومع النبي ﷺ مدراة يحك بها رأسه فقال ﷺ: «لو علمت أنك تنظر لطعنت بها في عينك إنما جعل الاستئذان من أجل البصر».. وفي النسائي أن أعرابياً أتى باب النبي ﷺ فألقم عينه خصاصة الباب فبصر به النبي ﷺ فتوخاه بحديدة أو عود ليفقأ عينه.. فلما أن أبصره الأعرابي انقمع.. فقال النبي ﷺ: «أما إنك لو ثبت لفقأت عينك»... أول ما يتبادر إلى أذهاننا نحن الجدد في الإسلام أن هذا العقاب شديد بالنسبة للفعل.. ولكن مع التفكير بعمق في الموضوع.. تجد أنه تشريع مثالي.. ليحفظ خصوصية البيوت وعوراتها... وهو خير للمجتمع ككل!!!

- نعم يا (أبا حمزة).. هذا تشريع جميل مفصّل في الاستئذان يحفظ المجتمع.. ولكل طرف حقه.. وفيه ألا يقف مستقبلاً الباب.. قال ﷺ: «هكذا عنك وهكذا وإنما الاستئذان من النظر» (صححه الأرنؤوط)، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إذا دخل البصر فلا إذن» (حسن)، أي ما فائدة الاستئذان إذا اطلع المرء على ما في المنزل.

تابع صاحبي الحديث:

- وجعل الاستئذان ثلاثاً.. كأنما أعطى الحق لأهل البيت أن يستقبلوا

القادم أو يرجع.. دون حرج أو عتب على أحد!! كما في الصحيحين عن أبي سعيد مرفوعاً «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع»... وفي معنى قوله تعالى.. ﴿حتى تستأنسوا﴾.. عن أبي أيوب.. يتكلم الرجل بتسيحة وتكبيرة وتنحنح حتى يؤذن له.

قال ابن عثيمين في شرح رياض الصالحين.. «وما جعل الاستئذان إلا من أجل النظر ومن أجل أن الإنسان يتصرف في بيته بإدخال من شاء ومنع من شاء».

طلبت من صاحبي أن يبحث بواسطة الذكاء الصناعي عن الموضوع ليقراً حيث كنت أتولى القيادة... وبالفعل..

- اسمع ما وجدت...

عن ربعي بن حراش قال: حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت، فقال: أألج؟ فقال رسول الله ﷺ لخادمه: اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان، فقل له: قل: السلام عليكم، أأدخل؟ فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ، فدخل» (رواه أبو داود بإسناد صحيح).

وعن كلدة بن الحنبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أتيت النبي ﷺ، فدخلت عليه ولم أسلم، فقال النبي ﷺ: «ارجع فقل السلام عليكم أأدخل؟». (رواه أبو داود، والترمذي، وقال: حديث حسن).

وعن جابر رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فدققت الباب، فقال: من ذا؟
فقلت: أنا، فقال: «أنا أنا؟ كأنه كرهها». (متفق عليه)

وجاء قوم إلى منزل سفيان الثوري فلم يجدوه، ففتحوا الباب وأنزلوا
السفرة فجعلوا يأكلون ما فيها، فدخل الثوري فجعل يقول: ذكرتموني
أخلاق السلف، وقد كان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن
فيأكلون ما يجدون بغير إذن، وكان الحسن ربما دخل فيجدهم كذلك فيسر
ويقول هكذا كنا، ثم تلا عليه: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾ (النور: ٦١)، إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾
(النور: ٦١)، ثم قال الحسن البصري: من استروحت إليه النفس واطمأن
إليه القلب، فإذا كان كذلك، فلا يستأذن له في ماله.



غَضُّ البَصْرِ

خُلِقَ عَظِيمٌ يَدُلُّ عَلَى التَّقْوَى وَخَشْيَةِ اللَّهِ بِالْغَيْبِ، ذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْمُسْلِمُ فِي خَلْوَةٍ، غَضَّ بَصْرَهُ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ.

- وهل هذا يشمل ما يشاهده المرء في الهاتف أو التلفاز؟

- بالطبع، فالأمر متعلق بما تشاهد، لا أين تشاهد! ذلك أن إطلاق البصر فيما حَرَّمَ اللَّهُ يورث آثاراً سيئة في القلب، وإذا لم ينته العبد فإن هذا المرض -إطلاق البصر- يزداد مع العمر، حتى لا يستطيع منعه ولا التخلص منه.

يقول الشيخ ابن عثيمين في شرح رياض الصالحين عند قوله -تعالى-: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُونَ فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور).

في هذه الآية دليل على وجوب التوبة من عدم غضِّ البصر وحفظ الفرج؛ لأن غض البصر يعني: قصره وعدم إطلاقه؛ ولأن ترك غض البصر وحفظ الفرج كل ذلك من أسباب الهلاك وأسباب الشقاء وأسباب البلاء، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ما تركت بعدي فتنة أضرت على الرجال من النساء». (البخاري)، وهذا هو الواقع؛ لذلك قال -تعالى- عقب الأمر بغض البصر: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور)، وقوله -عز وجل-: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ يدل على أنه ينبغي لنا -بل يجب علينا- أن نتواصى بالتوبة وأن يتفقد بعضنا بعضاً

هل الإنسان تاب من ذنبه أو بقي مصراً عليه؟ فالخطاب موجه للجميع (جميعاً أيها المؤمنون).

كنت وصاحبي في مجلس الأربعاء -ديوان الملا- يستضيفون متحدثاً كل شهر غالباً ما يكون أستاذاً في الشريعة أو شيخاً متميزاً، الحضور خليط من كل الفئات العمرية، مراهقون ومن تجاوزوا الستين، تابع الضيف حديثه:

- يقول ابن تيمية: «فجعل الله -سبحانه- غصّ البصر وحفظ الفرج هو أزكى للنفس، وبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس» (العبودية ج ١ ص ٣٣)، وفي الفتاوى عند قوله -تعالى-: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ «وأمره بالتوبة مما لا بد أن يدرك ابن آدم من ذلك، وقال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت أبا حسين الوراق يقول: من غض بصره عن محرّم أورثه الله بذلك حكمة على لسانه، يهتدي بها ويهدي بها إلى طريق مرضاته؛ وهذا لأن الجزاء من جنس العمل؛ فإذا كان النظر إلى محبوب فتركه لله عوضه الله ما هو أحب إليه منه».

استأذن أحد الحضور بسؤال:

- حديث النبي ﷺ: «ال نظرة سهم مسموم من سهام إبليس»، صحيح؟

هذا الحديث عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يعني عن ربه -عز وجل-: «ال نظرة سهم مسموم من سهام إبليس، من تركها من مخافتي، أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه» (قال الألباني: ضعيف

جداً)، وأورده الحاكم في المستدرک عن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه الله -عز وجل- إيماناً يجد حلاوته في قلبه» (قال الذهبي: حديث صحيح ولم يخرجاه).

فالحديث القدسي عن ابن مسعود ضعيف جداً، ورواية حذيفة صحهها الذهبي، وأنا أقول المعنى صحيح، ولست بمن يعلق على الألباني أو الذهبي!

ذلك أن الذي يغض بصره، يورثه الله حلاوة إيمان في قلبه وتقوى بصيرته، وينور الله وجهه، لأنه يعلق باباً عظيماً من أبواب الشيطان إلى قلب ابن آدم، بل هو دليل على مراقبة الله وخشيته، سئل الجنيد بما يستعان على غض البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنظر إليه!

فالعين مرآة القلب، وإطلاق البصر يورث المعاطب، وغض البصر يورث الراحة، والعبد إذا غض بصره في شبابه، حفظ الله -تعالى- عليه نعمة البصر، وإذا أطلق بصره، ربما أصبح شيخاً هرمًا، وهو ينظر إلى محارم الله ولا يستطيع أن يقضي حاجته! وأظن أن الجميع يعرف الحديث المتفق عليه:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته

كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيده، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته».

فلا ينظر إلا إلى ما يرضى الله تعالى، ولا يبطش إلا في رضا الله -عز وجل- ولا يسمع إلا في طاعة الله تعالى، هذا خلق أولياء الله الذين يحبهم، وفي الحديث عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «اكفلوا لي بستُّ أكفل لكم الجنة: إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا أوتمن فلا يخن، وغضوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم، وكفوا أيديكم» (صحيح الجامع).

قال ابن تيمية: «فقد كفل بالجنة لمن أتى بهذه الخصال الست، فالثلاثة الأولى تبرئة من النفاق، والثلاثة الأخرى تبرئة من الفسوق، والمخاطبون مسلمون؛ فإذا لم يكن منافقاً كان مؤمناً، وإذا لم يكن فاسقاً كان تقياً؛ فيستحق الجنة». (مجموع الفتاوى ٣٩٦/١٥).

وقال ابن القيم: «والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان؛ فالنظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة تقوى فتصير عزيمة حازمة؛ فيقع الفعل ولا بد، ما لم يمنع منه مانع، وفي هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده» (الجواب الكافي ١-١٠٦).

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنَ الزَّانِ؛ فَهُوَ مَدْرُكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، الْعَيْنَانِ زَانَاهُمَا النَّظْرَ، وَالْأَذْنَانِ زَانَاهُمَا الْإِسْتِمَاعَ، وَاللِّسَانَ زَانَاهُ الْكَلَامَ، وَالْيَدَ زَانَاهَا الْبَطْشَ، وَالرَّجْلَ زَانَاهَا الْخَطْيَ، وَالْقَلْبَ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى وَيَصْدُقُ ذَلِكَ الْفَرْجَ أَوْ يَكْذِبُهُ» (متفق عليه واللفظ لمسلم)؛ فالعبد ينبغي أن يتوب عما يقع فيه من هذه الذنوب، ولا يتبع النظرة النظرة، ولا السمع السمع، ولا البطش البطش، وإلا وقع في المحظور الأكبر والله أعلم.



ترك الجدال

لأكثر من اثنتي عشرة سنة، اعتزلت (الدواوين) العامة، وهي مجالس اشتهر بها أهل الكويت، يجتمعون مرة أو مرتين في الأسبوع، يتحدثون عن كل شيء، والكل يدلي بدلوه في القضايا العامة والأحداث المحلية والإقليمية والعالمية، وفي نهاية الأمر يذهب كل واحد إلى حال سبيله!

كانت الدواوين سابقاً -أعني قبل ثلاثين أو أربعين سنة- محدودة، وتقتصر على فئة لها ثقلها في المجتمع، أما الآن فأصبح كل مجموعة من الشباب يجتمعون كل أسبوع في مجلس أحدهم، يلعبون، ويشاهدون المباريات، ويتجادلون، وربما يقضون الليل كله إلى ما بعد الفجر، دون فائدة!!

في هذه المجالس، تجد دائماً نمطاً للحاضرين، بعضهم يستمع لا يتحدث، وبعضهم يكثر من النكت ليضحك الآخرين، وبعضهم يناقش ويجادل في المواضيع المطروحة، ولا يرضى إلا أن يثبت صواب رأيه، وبعضهم يتحدث فيما يعلم ويسكت فيما لا يعلم، وبعضهم يحضر للأكل والشرب!!

صاحبي من النوع الثالث، يجادل في كل شأن، حتى أقعده المرض، فاعتزل هذه المجالس في السنتين الأخيرتين، زرته في منزله وكان قد أخذ الجرعة الثانية من العلاج الكيماوي!

- هل تعرف يا (أبا معاذ) أكثر ما أندم عليه؟! أندم على الساعات الطويلة التي كنت أقضيها في جدال الآخرين، بالحق والباطل، في فترة مرضي استمعت إلى القرآن والأحاديث، ولاسيما في السنة الأولى التي قضيتها في العلاج، وأتحسر كم فاتني من الأجر! وكم جمعت من الوزر!

- لا عليك يا (أبا ناصر)، كنت تنقل كلام من تسمعهم من مختصين يحضرون للتسجيل في برنامجك الإذاعي.

- هذا صحيح، ولكن الجدال لا ينبغي، سمعت شيخاً يذكر حديثاً صحيحاً عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا زعيم بيت في ربض الجنة، لمن ترك المراء وإن كان محققاً، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه».

- نعم هذا الحديث في صحيح أبي داود وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة.

- وأنا ربما كنت أكثر الحضور جدالاً مع الأسف! أسأل الله العفو والمغفرة، لقد كان طبعاً سيئاً، حتى مع إخواني وربما مع والدي ووالدتي أحياناً، أجادلهم في كل شيء، ولكن الله نبهني قبل فوات الأوان، فمذ عرفت بمرضي، عاهدت الله -تعالى- أن أترك كل ما لا يرضيه، وألتزم بما يرضيه، قدر استطاعتي، وإني صادق -إن شاء الله-.

- إن الله يعلم صدقك، ويقبل عذرک، وأسأله أن يتم عليك الشفاء والعافية، والأحاديث في ترك الجدال كثيرة، ولاسيما في القضايا الشرعية؛

فلا ينبغي أن يجادل فيها الإنسان أو يماري إلا أن يكون نقاشاً علمياً على أسس شرعية، يقول عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تعلموا العلم لثلاث: لتماروا به السفهاء، وتجادلوا به العلماء، ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم، وابتغوا بقولكم ما عند الله فإنه يدوم ويبقى وينفذ ما سواه».

وعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما ضلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾» (صحيح الترغيب).

وفي اللغة (المراء)، من مریت الشاة، إذا حلبتها واستخرجت لبنها، و(الجدل)، اللد في الخصومة والقدرة عليها وجادله أي خاصمه، قال الجرجاني: «الجدل: دفع المرء خصمه عن إفساد بحجة أو شبهة»، و(المراء) الجدال: والممارسة المجادلة على مذهب الشك والريبة، وهو كثرة الملاحاة للشخص لبيان غلطه وإفحامه والباعث على ذلك الترفع. قاطعني (أبو ناصر).

- هذه الأخيرة أظنها الأقرب إلى الصواب؛ لأن دافع كل طرف أن يبين غلط الآخر، ويترفع عليه! أسأل الله العفو والمغفرة.

- وفي الحديث الآخر، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المراء في القرآن كفر» (صحيح الترغيب).

وعن جندب بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اقرأوا القرآن ما اختلفت قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه» (متفق عليه).

قال النووي: «والأمر بالقيام عند الاختلاف في القرآن محمود عند العلماء على اختلاف لا يجوز أو اختلاف يوقع فيما لا يجوز، كاختلاف في القرآن نفسه أو في معنى منه لا يسوغ الاجتهاد فيه، أو اختلاف يوقع في شك أو شبهة أو فتنة أو خصومة أو شجار أو نحو ذلك».

وفي تفسير السعدي عند قوله -تعالى-: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٢٢) ﴿الكهف﴾.

أي لا تجادل وتجادل فيهم إلا مبنياً على العلم واليقين، ويكون أيضاً فيه فائدة: أن الممارسة المبنية على الجهل والرجم بالغيب أو التي لا فائدة منها ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك، فإن كثرة النقاش فيها تضيع للوقت.

وكان السلف الصالح يحذرون جدال أهل البدع والجلوس إليهم! أما الدعوة إلى الله أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبيان الحق لا لمحض الجدال والمغالبة، فإن ذلك مطلوب ليس مذموماً، ولكن ينبغي أن يكون بالأسلوب الأفضل.

كما أرشد القرآن الكريم إليه ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَاتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥) ﴿النحل﴾، ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦) ﴿العنكبوت﴾.

وهكذا كان أسلوب النبي ﷺ مع كل من يدعو من قريش وغيرهم كما هو معلوم.

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة، الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون» (السلسلة الصحيحة).

فَلْيَقْل خَيْرًا.. أَوْ لِيَصْمِت

- لا شك أن اللسان باب عظيم إلى النار أو إلى الجنة، يغفل عنه كثير من الناس، مع أن الجميع يعرف حديث النبي ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم» (البخاري)، وصاحب الأخلاق يزن كل كلمة يقولها، وإلا لزم الصمت، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقْلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمِتْ».

كنت وصاحبي على متن الطائرة لأداء العمرة، اتخذنا القرار بعد صلاة الجمعة، وأتممنا جميع الحجوزات ساعتها، على أن نعتمر السبت ونرجع الأحد!

- فضل عظيم وتيسير من الله أن نتمكن من أداء العمرة خلال يوم واحد.

- نعم، الحمد لله على هذه النعمة العظيمة.

تابعنا حديثنا عن حفظ اللسان.

- قوله -تعالى-: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ (الأحزاب)، هذه الآية التي يذكرها إمامنا كل جمعة في مقدمة

خطبته، فيها أمر عظيم من الله لأهل الإيمان؛ فمن مقتضيات تقوى الله، القول السديد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قولاً سديداً، صواباً، صدقاً، وفي التفسير: «الغرض النهي عن الخوض فيما لا يعنيه، والحث على حفظ اللسان في كل باب؛ فإنه رأس الخير كله، والمعنى: راقبوا الله -تعالى- في حفظ ألسنتكم وتسديد قولكم».

- وماذا عن حديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»؟.

- أحسنت يا أبا أحمد، هذا حديث عظيم رواه الترمذي عن أبي هريرة، وعده بعض أهل العلم ربع الدين، وبعضهم ثلث الدين!

قال ابن القيم -رحمه الله-: جمع النبي صلى الله عليه وسلم الورع كله في هذا الحديث! وبالطبع ليس المعنى أن يترك المرء شؤون المسلمين وهموم الأمة لا يهتم إلا بشأنه! بل على العكس من ذلك، عليه أن يأتي كل ما ينفع الإسلام والمسلمين، ويعرض عما لا ينفع في الدين والدنيا كالإعراض عن اللغو، وهو الباطل، ابتداء من الشرك وانتهاه بما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال.

أعلن مذياع الطائفة أننا سنمر على الميقات بعد ثلاثين دقيقة؛ ذلك ليلبس المحرم إحرامه، ويستعد، كنت وصاحبي قد أتممنا هذا الأمر قبل الصعود إلى الطائفة.

- إن الأحاديث التي تحض على حفظ اللسان كثيرة؛ ذلك أن أكثر الذنوب إنما تقع من اللسان كما في حديث معاذ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم:

«ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟» (صحيح الترمذي).

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: عِظني وأُجز، فقال ﷺ: «إذا قمت في صلاتك؛ فصل صلاة مودع، ولا تكلم بكلام تعتذر منه غداً، واجمع الإياس مما في أيدي الناس». (السلسلة الصحيحة)، وعن ثوبان - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن ملك لسانه ووسعه بيته، وبكى على خطيئته» (صحيح الترغيب)، وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك» (صحيح الترغيب)، وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلت يا رسول الله: أي المسلمين أفضل؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده» (البخاري).

وفي شرح رياض الصالحين لابن عثيمين -رحمه الله-: «فإن الذي تتكلم به -خيراً كان أو شراً مُعلنًا أم سراً، فإنه يكتب لك أو عليك؛ كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ﴿١٨﴾ (ق)؛ فراقب هذا الأمر، وإياك أن تخرج من لسانك قولاً تحاسب عليه يوم القيامة، اجعل لسانك دائماً يقول الحق أو يصمت، كما قال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت».

وقوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ﴿٧٠﴾ يُصَلِّحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا

﴿٧١﴾؛ أمر الله -تعالى- بأميرين: بتقوى الله، وأن يقول الإنسان قولاً سديداً، أي صواباً. وقد سبق الكلام عن التقوى، وإنما فعل أوامر الله واجتناب نواهيه، أما القول السديد فهو قول الصواب وهو يشمل كل قول فيه خير سواء كان من ذكر الله، أو من طلب العلم، أو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو من الكلام الحسن الذي يستجلب به الإنسان مودة الناس ومحبتهم، أو غير ذلك، ويجمعه قول النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

و ضد ذلك (القول غير السديد)، وهو القول الذي ليس بصواب، بل خطأ إما في موضوعه، وإما في محله؛ أما في موضوعه: بأن يكون كلاماً فاحشاً، يشتمل على السب والشتيم والغيبة والنميمة وما أشبه ذلك. أو في محله: أي أن يكون هذا القول في نفسه هو خير، لكن كونه يقال في هذا المكان فذلك ليس بخير؛ لأن لكل مقام مقالاً، فإذا قلت كلاماً هو في نفسه ليس بشر، لكنه يسبب شراً إذا قلته في هذا المحل فلا تقله؛ لأن هذا ليس بقول سديد، ففي هذا الموضوع لا يكون قولاً سديداً، بل خطأ وإن كان ليس حراماً بذاته؛ فمثلاً، لو فرض أن شخصاً رأى إنساناً على منكر ونهاه عن المنكر، لكن نهاه في حال لا ينبغي أن يقول له فيها شيئاً، أو أغلظ له في القول، أو ما أشبه، لعد هذا قولاً غير سديد، فإذا اتقى الإنسان ربه وقال قولاً سديداً، حصل على فائدتين: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ ﴿٧١﴾ (الأحزاب).

فبالتقوى صلاح الإيمان ومغفرة الذنوب، وبالقول السديد صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب. وعلم من هذه الآية أن من لم يتق الله ويقل قولاً سديداً، فإنه حري بألا يصلح الله له أعماله، ولا يغفر له ذنبه؛ ففيه الحث على تقوى الله وبيان فوائدها.

بذل السلام

بينما كنت والإمام نناقش بعض شؤون المسجد، اقترب منّا شابٌ إلتزم صلاة الجماعة منذ سنة تقريباً.

- لدي سؤال:

قالها بعد أن سلم وقبل رأس الإمام.

- تفضل يا (بدر).

- سمعت حديثاً ولم أفهم معناه أو مدى صحته: «شرّ الناس من يتركه الناس بسبب فحشه هذا معناه».

تولى أماننا الرد عليه:

- نعم هذا الحديث متفق عليه ترويه أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها- قالت استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده فقال ﷺ: «بس ابن العشيرة أو أخو العشيرة! ثم أذن له فألان له القول، أي حدّثه بكلام جميل لينّ، فلما خرج، قلت يا رسول الله: قلت عنه ما قلت ثم أنت له القول! فقال: يا عائشة إن من شرّ الناس من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه» وفي البخاري «فلما جلس الرجل تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط له».

هذا الحديث أورده العلماء في باب تجنب الفاحش من الكلام، وهذا الرجل كان معروفاً بسوء الكلام والمعاملة؛ فذكره النبي ﷺ بما كان يعرف

به، فهو من الذين يتجنبه الناس لسوء كلامه وفحشه، ومع ذلك أذن له النبي ﷺ واستقبله بطلاقة وجه وحسن كلام.

حسن الكلام وبذل السلام، من مكارم الأخلاق التي بعث النبي ﷺ ليتممها!

شكره (بدر)، تابعت جلستى مع الإمام.

- موضوع جميل يصلح لخطبة الجمعة.

- نعم، دعنا نبحث قليلاً في الأحاديث المتعلقة به.

عن أبي شريح (أو أبي سرح)، قلت يا رسول الله، أخبرني بشيء يوجب لي الجنة، قال: «طيب الكلام (طيب الكلام) وبذل السلام وإطعام الطعام» (صحيح الترغيب)، وفي رواية أخرى عن أبي سرح: «قلت يا رسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة، قال: إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام» (السلسلة الصحيحة).

(بذل السلام)، نشره وإفشاؤه، كما في الحديث عن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» (مسلم).

وعن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «اعبدوا الرحمن وأطعموا الطعام وأفشوا السلام، تدخلوا الجنة بسلام» (السلسلة الصحيحة)،

وفي رواية: «أطعموا الطعام وأفشوا السلام تورثوا الجنان» (السلسلة الصحيحة).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفشوا السلام تسلموا» (السلسلة الصحيحة). عقت على كلام صاحبي.

- أحاديث أسمعها أول مرة.

- وهكذا طالب العلم، كلما ازداد علماً ازداد علماً بجهله!

وأزيدك حديثاً آخر عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام» (صحيح الترمذي).

وآخر حديث عجيب عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «السلام اسم من أسماء الله، وضعه الله في الأرض؛ فأفشوه بينكم؛ فإن الرجل المسلم إذا مر بقوم فسلم عليهم فردوا عليه، كان له عليهم فضل درجة بتذكيره إياهم (السلام)، فإن لم يردوا عليه رد عليه من هو خير منهم وأطيب» (صحيح الجامع).

يقول الإمام مجاهد: كان «عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - يأخذ بيدي فيخرج إلى السوق يقول: إني لأخرج ومالي حاجة إلا لأسلم ويسلم علي! فأعطي واحدة وأخذ عشرة، يا مجاهد إن (السلام) من أسماء الله - تعالى -، فمن أكثر السلام أكثر ذكر الله». وفي بيان أجر من أطاب الكلام وأفشى السلام، حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن في الجنة عُرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها؛ فقال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وبات قائماً والناس نيام» (صحيح الترغيب).

استوقفت صاحبي..

- حديث: (أفشوا السلام تسلموا)، هل قرأت شيئاً في شرحه؟

- نعم، إليك الشرح مباشرة من كتب السنة: أي تسلموا من الإثم أو من نكبات الدنيا ومن أهوال الآخرة، وفضل الله واسع أي تسلموا من كل ما يضركم في الدنيا والآخرة!

- أحاديث جميلة في (السلام)، قليل من يعمل بمقتضاها؛ بل إذا عمل بها أحدنا ينكر عليه عامة الناس: (لماذا يمشي ويسلم؟)، نسأل الله العافية.

أراد صاحبي أن يختم حديثنا:

- عموماً المؤمن لا يصدر منه إلا الكلام الطيب، وكما قال عبدالله بن مسعود رضي عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان ولا بالفاحش ولا بالبذيء» (الصحيححة)، كلام المؤمن لين، طيب، خيّر مع الجميع، حتى مع المخالفين، كما أمر الله -عز وجل- نبيه موسى -عليه السلام- مع فرعون: ﴿فَقَوْلًا لَهُ، قَوْلًا لِنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه).

طيب الكلام

(سالم).. أحد أعمدة مسجدنا.. لا يغيب عن صلاة إلا لعذر.. (سفر - مرض - اتباع جنازة..) حتى أن الجميع يعتمد عليه أن يؤذن إذا اعتذر المؤذن أو سافر.. ويقوم بإمامة المصلين إذا تأخر الإمام عن صلاة الظهر أو العصر.. (محبوب الجميع).. ذلك أنه هينّ لهنّ.. طيب الكلام.. خفيف الظل.. خدوم.. صدوق.. متواضع..

- إن طيب الكلام.. من أفضل الأخلاق التي تحبب المرء إلى الناس.. والفحش في الكلام ينفر الناس ويبغضهم في المرء.. وهو خلق أوصى به النبي ﷺ.. حين قال: «إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام». (السلسلة الصحيحة)

- وشتان بين من يحبه الناس لطيب كلامه.. ومن يتجنبه الناس لفحش كلامه..

- ولدينا في مسجدنا هذان الصنفان... دون أن نذكر أحداً بسوء حتى لا نقع في الغيبة!!!

إن الكلمة الطيبة نتاج قلب سليم وخلق كريم، والحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: «الكلمة الطيبة صدقة».

والحديث الآخر.. عن عدي بن حاتم قال: قال النبي ﷺ: «اتقوا النار، ثم أعرض وأشاح، ثم قال: اتقوا النار.. ثم أعرض وأشاح.. ثم قال: اتقوا

النار ثم أعرض وأشاح.. حتى ظننا أنه ينظر إليها.. ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة». (متفق عليه)

- كنا في مجلس المسجد بين العشائين.. كعادتنا كل اثنين.. يفطر من كان صائماً.. ويدير إمامنا الحديث بعد الانتهاء من الأكل...

- (الكلمة الطيبة).. تجب للوالدين.. والزوجة.. والأبناء.. والحيران.. والأرحام، بل إن الكلمة الطيبة.. تكسب بها حتى قلوب الخصوم..

- ماذا عن قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (إبراهيم).

كان السائل (أبا إبراهيم)..

- يقول ابن تيمية: «وقد ضرب الله مثل الكلمة الطيبة التي في قلوب المؤمنين (لا إله إلا الله)، فيبين أن الكلمة الطيبة لها أصل ثابت ولها فرع عال وهي ثابتة في قلب ثابت كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ (إبراهيم).

فالكلمة الطيبة في هذه الآية هي كلمة (لا إله إلا الله) ولا شك أنها أطيب وأعظم كلمة قامت لأجلها السموات والأرض، فأرسلت لأجلها

الرسول وأنزلت الكتب... من حققها خلد في الجنة ومن نقضها خلد في النار.. ولكن موضوعنا هو الكلام الطيب، والقول الحسن بين البشر... يقول تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَأَتَتْ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْدُرُ تُبْدِيرًا﴾ (٢٦) ﴿إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (٢٧) ﴿وَمَا تُعْرَضَنَّ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ (٢٨).

في تفسير الطبري: «ولكن قل لهم قولاً جميلاً.. نحو: سيرزق الله وأعطيكم وما أشبه ذلك من القول اللين غير الغليظ.. كما في قوله تعالى: ﴿وَأما السائل فلا تنهر﴾.. قل قولاً ليناً سهلاً كأن تعتذر بلطف ولا تردهم خائبين.. فالكلمة الطيبة.. تطيب القلوب، وإن لم تقض الحاجات...

وفي الحديث عن أبي مالك الأشعري قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام». (صحيح الجامع الصغير).

وفي الباب عن عائشة رضي الله عنها، أن يهوداً أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة: وعليكم، ولعنكم الله، وغضب الله عليكم، قال: «مهلاً يا عائشة! عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش». قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: «أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم، فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم في». (صحيح)

وعن عبد الله (هو ابن مسعود)، عن النبي ﷺ قال: «ليس المؤمن بالطعان، ولا باللعان، ولا بالفاحش، ولا البذيء». (الصحيح)

وعن عروة بن الزبير أن عائشة - رضي الله عنها - أخبرته قالت: استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: «أئذنوا له ببئس، أخو العشيرة أو ابن العشيرة». فلما دخل ألان له الكلام قلت يا رسول الله قلت الذي قلت، ثم ألت له الكلام قال: «أي عائشة، إن شرَّ الناس من تركه الناس - أو ودعه الناس - اتقاء فحشه». (البخاري)

يقول الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - في شرح رياض الصالحين: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة». (صحيح الجامع)

هذا الحديث في بيان طريق من طرق الخيرات، لأن طرق الخيرات، ولله الحمد، كثيرة، شرعها الله لعباده ليصلوا بها إلى غاية المقاصد، فمن ذلك الصدقة، فإن الصدقة كما صح عن النبي ﷺ: «تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»، يعني كما لو أنك صببت ماءً على النار انطفأت، فكذلك الصدقة تطفئ الخطيئة.

وفي هذا الحديث دليل على كلام الله عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى يتكلم بكلام مسموع مفهوم، لا يحتاج إلى ترجمة، يعرفه المخاطب به.

وفيه دليل على أن الصدقة ولو قلت تنجي من النار، لقوله: «اتقوا النار ولو بشق تمرة».

قال: «فإن لم يجد بكلمة طيبة»، يعني إن لم يجد شق تمرة فليتنق النار بكلمة طيبة.

والكلمة الطيبة تشمل قراءة القرآن، فإن أطيب الكلام القرآن الكريم، وتشمل التسبيح التهليل، وكذلك تشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتشمل تعليم العلم، وتعلم العلم، وتشمل كذلك كل ما يتقرب به الإنسان إلى ربه من القول، يعني إذا لم تجد شق تمرة فإنك تتقي النار ولو بكلمة طيبة.

فهذا من طرق الخير، وبيان كثرتها ويسرها، فالحمد لله أن شق التمرة تنجي من النار.. وأن الكلمة الطيبة تنجي من النار.. نسأل الله أن يجنبنا وإياكم النار... انتهى.

الرفق

أتيت المسجد قبل صلاة الظهر بنصف ساعة.. فإذا أحد المصلين
يمسك بطفل.. يعنفه.. وينهره.. ويصرخ عليه.. رأني.. كأنه شعر بحرج..
فتركه وهو يتوعده بسوء العاقبة...

- خير يا (أبا سعد)... ماذا حصل؟

- هؤلاء الأطفال.. يلعبون الكرة في ساحة المسجد... صرخت عليهم
فهربوا إلا هذا... وقف مكانه..

استغربت.. شدته.. مع أن هؤلاء الأطفال.. يصلّون معنا.. وهم أبناء
المؤذن.. وجيران المسجد!!

- دعهم يلعبوا في هذه الساحة.. أأمن لهم من الخارج.. ولا ضرر على
المسجد أو المصلين من لعبهم الكرة.. هنا..

أخذت أبا سعد.. من يده..

دعنا نتمشى قليلاً.. حتى يحين موعد الأذان..

- أجبني إلى طلبي.. محرراً..

- يا (أبا سعد).. هؤلاء أطفال صغار يحتاجون من يعاملهم برفق
ولين.. إنك لا تدري عن أحوالهم في بيوتهم... ولكن الرفق سمة
المؤمن... وخاصة مع الضعيف والصغير وكبير السن.. والرفق خير من

العنف... دائماً... كما قال النبي ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله». (متفق عليه)... وفي حديث عائشة رضي الله عنها، قال رسول الله ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه». (مسلم)

قاطعني:

- صدقني يا أبا عبد الله... والله أعلم كل ذلك... ولكن أصابتنى كآبة وضيق نفس.. وكدر.. من مشاكل في العمل... وفي البيت.. أتيت المسجد لأصلي وأدعو الله... وأقرأ القرآن.. لعل الله يذهب عني.. كل ذلك..

- ونعم بالله... العبد المؤمن يلتزم مكارم الأخلاق.. عند مكاره المواقف.. مطلوب منه الصبر... عند الصدمة الأولى... والرفق حال ضيق الصدر.. والحلم.. حال الغضب.. والرفق من أجمل الأخلاق التي ينبغي أن يجاهد العبد نفسه أن يكتسبها... ففي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله».

وفي رواية... «من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير.. ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير». (صحيح الترمذي)

والنبي ﷺ كان أرفق الناس بالصبيان... كان ﷺ يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح على رؤوسهم.. (صحيح النسائي)

- نعم... أحتاج أن أذكر نفسي بهذه الأحاديث.. وأجاهد نفسي أن أكسب هذا الخلق.. تقول زوجتي.. إن أسلوبى وطريقة حديثى مع الأطفال شديدة.. ولم أكن أشعر بذلك... بل أظنها طبيعية... هكذا تربيت في بيت والدى... ولكن يبدو أنني أحتاج إلى إعادة تأهيل... في موضوع (الرفق)...

كان (أبو سعد) يتحدث بصوت خافت كأنما يحدث نفسه...

- إن الأخلاق الحسنة يمكن اكتسابها.. بمجاهدة النفس.. وتربيتها.. والمحاولة.. بعد المحاولة.. ودعاء الله تعالى.. ومن يسعى لنيل خلق حسن.. يعينه الله.. ويسر عليه.

- زدني من هذه الأحاديث في باب الرفق.. لا زال أمامنا ربع ساعة لموعد الأذان...

- الأحاديث في الرفق كثيرة... مثلاً... من يصلي في الناس يجب أن يخفف ويرفق بهم.. كما في حديث معاذ... عندما كان يصلي في الناس وقرأ سورة البقرة، أو النساء، وأطال.. فترك أحدهم الصلاة كانت معه ناضحتان..

ثم بلغه أن معاذاً نال منه.. فأتى النبي ﷺ يشكو معاذاً... فقال ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ؟ أفتان أنت يا معاذ؟ فلولا صليت بـ (سبح اسم ربك) و(والشمس وضحاها) و(والليل إذا يغشى)، فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة». (متفق عليه)

وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «إني لأدخل الصلاة أريد إطالتها.. فأسمع بكاء الصبي، فأخفف من شدة وجد أمه به». (مسلم)

وحديث ذلك الذي تكلم في الصلاة.. وهو معاوية بن الحكم السلمي... يقول... بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله (وهو يصلي)... فرماني القوم بأبصارهم، فقلت في نفسي... (وا ثكل أمي).. ما شأنكم تنظرون إلي؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم.. فلما رأيتهم يصمتونني سكت!! فلما فرغ النبي ﷺ بأبي هو أمي - ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه - فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني: قال لي... «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن». (مسلم)

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: (مه مه) ينهرونه.. فقال ﷺ: «لا تزرموه دعوه»، فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعا، فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القدر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن»، أو كما قال رسول الله ﷺ، قال: فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنته عليه. (مسلم)

وفي شرح رياض الصالحين لابن عثيمين - رحمه الله -: عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «إن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل، وهو يحب أن يعمل به، خشية أن يعمل به الناس فيُفرض عليهم». (متفق عليه)

وعنها رضي الله عنها قالت: نهاهم النبي ﷺ عن الوصال رحمة لهم فقالوا: إنك تواصل؟ قال: «إني لست كهيئتكم، إني أبيتُ يُطعمني ربي ويسقيني». (متفق عليه)

معناه: يجعل في قوة من أكل وشرب.

الشرح:

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عائشة - رضي الله عنها - في باب الرفق بالمسلمين والشفقة عليهم، قالت عائشة - رضي الله عنها - : «إن كان النبي ﷺ ليدع العمل وهو يحب أن يفعله، خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم». قولها: «إن كان» «إن» هذه مخففة، يقول النحويون: إن اسمها محذوف ويسمونه ضمير الشأن، وجملة (كان ليدع) خبرها. فالجملة هنا ثبوتية وليست سلبية. والمعنى أن النبي ﷺ كان يترك العمل وهو يحب أن يفعله، لئلا يعمل به الناس، فيفرض عليهم، فيشق عليهم.

ومن ذلك ما فعله في رمضان ﷺ، صلى في رمضان ذات ليلة، فعلم به أناس من الصحابة، فاجتمعوا إليه وصلوا معه، وفي الليلة الثانية صلوا أكثر، وفي الثالثة أكثر وأكثر، ثم ترك الصلاة في المسجد، فقال ﷺ: «أما بعد، فإنه لم يخف عليّ مكانكم»، يعني ما جرى منهم من الاجتماع، «ولكنني كرهت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها»، فترك هذا القيام جماعة خوفاً من أن يفرض على الأمة، وهذا من شفقتة ﷺ، وكان يقول: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة».

مثله قوله ﷺ حين تأخر في صلاة العشاء حتى ذهب عامة الليل، فقال: «إنه لوقتها» يعني آخر الوقت. ثم قال: «لولا أن أشق على أمتي» فهو ﷺ كان يدع العمل ويدع الأمر بالعمل، خوفاً من أن يشق على الأمة.

وكذا من ولي من أمر المسلمين شيئاً... ينبغي أن يرفق بهم كما في الحديث عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به». (مسلم)

يرحم صغيرنا.. ويوقر كبيرنا

بعد التسليم من صلاة الجمعة.. يتوافد الصبيان الصغار لمصافحة إمامنا.. بينما يمازحهم.. ويحبب إليهم السلام عليه..

في إحدى الجُمع وفي «ديوانية» المسجد، حيث نجتمع بعد الجمعة وبين العشاءين أحياناً انتقده أحد رواد المسجد..

- ألا ترى أن عدد الصبيان الذين يسلمون عليك بعد الجمعة ازداد وأصبح مزعجاً؟!

استغربت.. انتقاد (أبي داوود).. أجابه إمامنا بهدوء:

- على النقيض.. أرى أن هذا يحببهم في المسجد.. والصلاة... ويزيل عنهم رهبة الإمام والخطيب.. ولعلي أقتدي برسول الله ﷺ.. كما في الحديث، كان ﷺ يمازح أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قائلاً: «يا ذا الأذنين». (صحيح البخاري)، وفي البخاري يقول أنس: «كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له أبو عمير، وكان إذا جاء قال له رسول الله ﷺ: «يا أبا عمير، ما فعل النغير» (طائر صغير).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا» (صحيح الترغيب).

قاطعهُ أبو داوود:

- ولكن ليس في المسجد؟ والناس تريد أن تسبح...

تدخلت لألطف الجو...

- نعم يا أبا داوود، طالما نعلمُ الطفلَ ألا يمر بين يدي مصلي.. ولا يرفع صوته، وطالما الطفل مميّز يعرف الصواب من الخطأ.. فلا بأس من ممازحته في المسجد... ويلحق بهذا أيضاً توقيير كبار السن كما في الحديث.. عن أبي موسى رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من إجلال الله تعالى.. إكرام ذي الشبية المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه، والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط» (صحيح الترغيب).. استدرك علي أبو داوود.

- كأنك خرجت عن الموضوع... أو أردت أن تغير الحوار...

- الأمر لا يستحق أن يناقش بتوتر.. بل نستفيد من بعضنا كل بما لديه من علم شرعي.. وهنا حضرني حديث النبي صلى الله عليه وسلم.. عن عبادة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس من أمتي من لم يجلّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه». (صحيح الترغيب)

- نعم.. توقيير كبار السن من مكارم الأخلاق التي أظنها اندثرت أيامنا هذه.. ففي عام الفتح.. جاء أبو بكر بأبيه.. أبي قحافة.. إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «لو أقررت الشيخ في بيته لأتيناها»، وأسلم حينها أبو قحافة.. وكان رأسه ولحيته كالشغامة - شجرة بيضاء الزهر والثمر، يشتد بياضها إذا يبست، تثبت في رؤوس الجبال - فقال صلى الله عليه وسلم: «غير وهما وجنبوه السواد». (صحيح الألباني)

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «أمرني جبريل أن أقدم الأكابر». (السلسلة الصحيحة)

الأكابر سنأ.. والأكابر قدراً..

ولحية أبي داوود.. «اشتعلت شيباً».. فلا تكاد ترى السواد.. عقب
مازحاً..

- زيدونا من أحاديث الشيب..

إليك هذا الحديث الجميل... بل حديثين..

عن أبي نجیح السلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «من بلغ بسهم في سبيل الله فهو له درجة في الجنة، ومن رمى بسهم في سبيل الله فهو له عدل محرر (رقبة يعتقها)، ومن شاب شيبية في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة». (صححه الألباني)

والحديث الثاني في الموطأ.. «أن إبراهيم - عليه السلام - عندما رأى الشيب قال: يا رب ما هذا؟ فقال الله عز وجل: وقاراً يا إبراهيم، فقال عليه السلام: يا رب زدني وقاراً».

بحث عن الحديث... ثم علقت:

- هذا الحديث موقوف على سعيد بن المسيب.. كما في الموسوعة الحديثية..

- أحسنت يا أبا معاذ..

- ولا شك ان رحمة الصغير وتوقير الكبير تكون بالكلمة وبالحرمة، كتقبيل رأس الكبير.. ومسح رأس الصغير.. وخاصة إذا كان يتيماً.. فهو أحوج إلى الرحمة والعطف.. كما في صحيح مسلم، قال: «خير نساء ركن الإبل نساء قريش، أحناه على يتيم، في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده»..

ولا شك أن طريقة إظهار الرحمة والشفقة على الصغار، وتوقير واحترام الكبار تخضع للعرف في الزمان والمكان... ولكنها لا تخفى على أحد.. من فعلها يريد وجه الله واتباع السنة.. فقد نال الأجر والثواب، ومن تنكّر لها ولم يطبقها.. فهو ليس على هدي النبي ﷺ.. وهذا معنى: «فليس مناً».

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «أخبروني بشجرة مثلها مثل المسلم، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ولا تحترق ورقها، فوقع في نفسي أنها النخلة، فكرهت أن أتكلم، وثم أبو بكر وعمر، فلما لم يتكلما، قال النبي ﷺ: هي النخلة، فلما خرجت مع أبي قلت: يا أبتاه، وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تقولها، لو كنت قلتها كان أحب إلي من كذا وكذا، قال: ما منعتني إلا أنني لم أرك ولا أبا بكر تكلمتما فكرهت». (متفق عليه)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ، فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم، فقالوا: لكنا والله ما نقبل،

فقال رسول الله ﷺ: «وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة» (وقال ابن نمير) من قلبك الرحمة». (مسلم)

وفي البخاري أن اثنين أرادا الحديث بين يدي النبي ﷺ، فبدأ عبد الرحمن، وكان أصغر القوم، فقال النبي ﷺ: «كَبَّرَ الكُبْرَ». (قال: ليبدأ الكلام الأكبر سنًا).



توقير العلماء

يتعجب بعض أقاربي من شربي الشاي والقهوة دون سكر.

- بدأت هذه العادة (الحسنة) منذ أكثر من أربعين سنة أثناء إنهائي لمرحلة الدكتوراة؛ لعدم توفر السكر في المكاتب المشتركة لطلبة الدراسات العليا؛ فأعددت قهوتي واستمتعت بمذاقها (المرّ)، وأصبحت عادة بعد ذلك وتأصلت باتباع الإرشادات الصحية باجتناّب (السّم الأبيض) كما يقولون، السكر والملح.

كان اجتماع العائلة الأسبوعي، يوم الخميس مع أن الالتزام به أصبح أقل بكثير مما كان عليه في حياة الوالدة -رحمها الله- قبل ثلاثة أعوام.
سألت شقيقتي:

- سمعت أحد المشايخ يقول: إن حديث قراءة سورة الكهف يوم الجمعة (ضعيف)، هل هذا الكلام صحيح؟

قبل أن أرد عليها تدخل (أبو أحمد)، -ولا اهتمام له بالعلم الشرعي:
- وما لنا ولهذا الشيخ وغيره؟ قراءة القرآن فيها أجر عظيم، لماذا نسمع آراء فلان وفلان؟!

لم يعجبني رده حافظت على هدوئي.

- قبل أن نتحدث عن حديث قراءة سورة الكهف يوم الجمعة يجب أن نبين قضية أهم بكثير وهي (توقير العلماء).

قاطعني:

- أنا لا أهتم لرأي أحد، الدين واضح، ولا أحتاج أن أعرف أقوال (الألباني)، و(ابن باز)، و(ابن عثيمين)، ولا غيرهم.

أيقنت أنه يحتاج إلى توضيح!

- لك أن تفعل ما تشاء، ولكن دعني أبين للباقي قضية مهمة، يقول الله -تعالى-: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران)، وفي الحديث: «إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم؛ فمن أخذه أخذ بحظ وافر» (صحيح الترمذي)؛ ففي الآية قرن الله -عز وجل- شهادتهم بشهادته -سبحانه وتعالى- وهذا تشریف لا تشریف بعده، وفي الحديث بين النبي ﷺ أنهم يحملون ميراث النبوة؛ العلم، ولا شك أن هذا تشریف عظيم.

العلماء هم الذين ينقلون لنا الصحيح من دين الله، منذ عهد الصحابة وإلى يوم القيامة فهم الذين يحفظون الدين نقياً، ويبينون الصواب من الخطأ فلا يمكن لمرء يريد الهداية أن يستغني عنهم؛ بل الواجب توقييرهم واحترامهم دون مغالاة ولا مجافاة؛ فمكانتهم محفوظة بحفظ الله لها: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر)؛ فمن التقرب إلى الله، ومن أخلاق المؤمن التي بينها النبي ﷺ توقيير العلماء كما في الحديث، عن عبادة بن الصامت - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال رسول

الله ﷺ: «ليس منا من لم يجلّ كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه»
(صحيح الترغيب).

- وكيف نتبعهم، وهم يختلفون! وأحياناً يُخطئ بعضهم بعضاً؟

- الاختلاف من طبيعة البشر، والعلماء بشر يجتهدون، وهم أهل
للاجتهاد، والمجتهد إذا أصاب له أجران وإذا أخطأ له أجر!
قاطعني مرة أخرى:

- كل واحد يأتي ويفتي ويتكلم في دين الله، وفي الأحاديث، حتى أن
بعضهم، قال: إن (صحيح البخاري) لا يؤخذ به!

- ليس كل من زعم قولاً، يؤخذ بقوله، العالم هو من شهد له علماء
زمانه بعلمه، يقول الإمام مالك: «ما جلست للفتوى حتى شهد لي سبعون
شيخاً من أهل العلم أنى موضع لذلك»؛ فالعلماء يشهد بعضهم لبعض،
اجتمع (ابن باز) و(ابن عثيمين) و(الألباني) في الحج ذات سنة، وأكبرهم
(ابن باز)، فتم تقديم الألباني للصلاة بهم قال: كلنا يحفظ كتاب الله وأنت
أعلمنا بحديث النبي ﷺ!

هكذا هم العلماء، ينبغي أن يكون للعلماء مكانة عند المسلم بحيث
يعرف قدرهم ويتبعهم، ولا يقدرهم، وهذه هي تعاليمهم هم:

قال أبو حنيفة: «إذا صح الحديث فهو مذهبي». وقال مالك: «إنما أنا
بشر أخطئ وأصيب؛ فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه،
وإلا فاتركوه».

وقال الشافعي: «ما من أحد إلا وقد تذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ، فمهما قلت من قول أو أصّلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت، فالقول ما قال رسول الله ﷺ وهو قولي»؛ فيجب موالاته العلماء ومحبتهم: فهم أولى الناس بالموالاته وأحقهم بالمحبة في الله بعد الأنبياء.

قال شيخ الإسلام: «يجب على المسلمين بعد موالاته الله -تعالى- ورسوله ﷺ، موالاته المؤمنين خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء...». قال الشافعي -رحمه الله- للإمام أحمد: «أنتم أعلم بالحديث مني، فإذا صحّ عندكم الحديث فقولوا لنا حتى آخذ به».

قال ابن تيمية: «كل أمة قبل مبعث نبينا محمد ﷺ فعلماؤها شرارها، إلا المسلمين، فإن علماءهم خيارهم؛ فإنهم خلفاء الرسول في أمته، والمحيون لما مات من سنته» (رفع الملام عن الائمة الأعلام ١-٨)، قال ابن القيم -رحمه الله-: «إن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة، قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور، بل ومأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يتبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته ومنزلته في قلوب المسلمين»، وإذا كانت زلة العالم هذه غير ذات أثر على الناس، فالواجب سترها لعله يرجع عنها. (إعلام الموقعين ٣-٢٨٣).

قاطعتني شقيقتي (أم فيصل):

- لقد نسينا سؤالنا الأول عن قراءة سورة الكهف يوم الجمعة؟ ابتسمت.

- معك حق، ولكن موضوع توقيير العلماء أهم، أما الجواب عن سؤالك فهو من أقوال العلماء وليس مني وإليك ما قالوا:

روى الحاكم في المستدرک مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين» (صححه الألباني)، هذا أصح ما ورد، مع أن بعض أهل العلم ضعف هذا الحديث وذكره موقوفاً، ولكنني أقول: إن الألباني أعرف بالأحاديث من غيره في عصرنا، والله أعلم.

العفة - العفاف

- في دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى».

ما المقصود بالعفاف؟

- هذا الدعاء من جوامع كلم النبي ﷺ، يدعو ﷺ بالكلمات القليلة الدالة على معان كثيرة، يروي الحديث أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه - أورده الإمام مسلم في صحيحه والترمذي، والعفاف كما في شرح النووي هو التنزه عما لا يباح والكف عنه، والغنى، هو الاستغناء عما عند الناس.

صاحبي دقيق في أسئلته، يفاجئني بالسؤال عن أدق التفاصيل، كثيراً ما أعجز أن أجد إجابة لأسئلته؛ فنبحث سوياً عن الإجابات، وهي -بفضل الله- مهمة سهلة لما في أيدينا من وسائل للوصول إلى أمهات الكتب وأقوال العلماء.

- وما الفرق بين (العفة) و(العفاف)؟

- دعنا نبحث في المعاجم، (العفة) مصدر (عف)، أي (كف وامتنع)، والاستعفاف، (طلب العفاف)، و(العفاف) يستخدم غالباً كالمصدر للفعل (عفّ)، واستخدامه أكثر من (العفة)، وقيل (العفاف) هو الكف عن كل ما لا يباح وعن خوارق المروءة، و(العفة) ترك الشهوات من كل شيء وغالباً في حفظ الفرج مما لا يحل.

كنت وصاحبي في مكتبة المسجد كعادتنا كل ثلاثاء بين المغرب والعشاء!.

- (والعفيف) هو كثير (العفة) و(المتعفف)، من يطلب (العفة) ويتكلفها، وفي الحديث عن ثوبان، في بيان معنى (الغنى)، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكفل لي ألا يسأل الناس شيئاً أتكفل له بالجنة؟ فقلت (ثوبان): أنا يا رسول الله، فكان ثوبان بعد ذلك يقع سوطه وهو راكب فلا يقول لأحد: ناولنيه، حتى ينزل هو فيأخذه» (صحيح الترغيب).

- يا سبحان الله! أمره عجيب! لنرجع إلى (العفة) و(العفاف)، هل حديث «من يستعفف يعفه الله» (صحيح؟).

- دعني أبحث لك، هذا الحديث في صحيح الجامع، عن حكيم بن حزام قال: قال رسول الله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، ومن يستغن يغنه الله، ومن يستعفف يعفه الله».

وفي صحيح الترغيب، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن أناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا نفذ ما عنده قال ﷺ: «ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن استعفف أعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى الله أحداً عطاءً هو خير له وأوسع من الصبر»، فهذه الأخلاق، (العفاف) (الغنى)، (الصبر)، يسعى العبد لينالها، ويدرب نفسه

عليها، ويدعو الله أن يرزقه إياها، وهي دون شك خير له من السؤال، والجزع، والوقوع فيما لا يحل.

- اسمع ما وجدت في العفة، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «المروءة مروءتان: مروءة ظاهرة ومروءة باطنة: فالظاهرة: الرياش، (حسن المظهر ونظافة الثياب) والباطنة العفاف.

قال أيوب السخيتاني: لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عن أموال الناس، والتجاوز عنهم، وينسب هذا القول للأحنف بن قيس أيضاً. وقال عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما-: «نحن -معشر قريش- نعد الحلم والجود السؤدد ونعد العفاف وإصلاح المال المروءة».

وقال محمد بن الحنفية: «وهو ابن علي بن أبي طالب نسب إلى أمه لأنه ليس ابن فاطمة -رضي الله عنها- الكمال في ثلاثة: العفة في الدين والصبر على النوائب وحسن التدبير في المعيشة».

وقال الجنيد: «أربع خصال ترفع العبد: العلم والأدب والعفة والأمانة».

وقال الشافعي: «الفضائل أربع: الحكمة وقوامها الفكرة، والعفة وقوامها الشهوة، والقوة وقوامها الغضب، والعدل وقوامه في اعتدال قوى النفس».

- كلام جميل، أظن أن العبد ينبغي له أن يدرب نفسه على العفة دوماً، ويرتقي بهذا الخلق، حتى يبلغ منتهى ما يستطيع، فيبدأ بغض البصر

وكف النظر، عما في أيدي الناس، ويتعامل مع الله سرّاً وعلناً، ويستعين بالطاعات، ويستغفر عند الزلات.

- دعنا نرى ما كتب الإمام ابن القيم في العفاف والعفة:

«لما كف لذته، وحبس شهوته لله وفيها مسرة نفسه الأمانة بالسوء، أعاضه الله - سبحانه - مسرة ولذة أكمل منها، كما قال بعضهم والله للذة العفة أعظم من لذة الذنب، ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها، أعقبها ذلك فرحاً وسروراً ولذة أكمل من لذة موافقة الهوى، بما لا نسبة بينهما، وهاهنا يمتاز العقل من الهوى» (روضة المحبين).

ومن منافع النكاح: غض البصر وكف النفس والقدرة على العفة عن الحرام (زاد المعاد).

وهو - سبحانه - إنما أباح نكاح الحرائر والإماء بشرط الإحصان وهو العفة؛ فقال: ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرٍ مُسَفَّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ (النساء: ٢٥) (زاد المعاد).

«والفطر السليمة داعية إلى تحصيل المستحسن، ورفض المستقبح، سواء حمله عليه شارع أو لم يحمله، ثم الأخلاق الحميدة والخصال الرشيدة من العفة والجود والسخاء والنجدة» (مفتاح دار السعادة).

«فإن الزناة يعاملون بضد قصودهم؛ فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرمه الله عليه، عاقبه بنقيض قصده، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته،

ولم يجعل الله معصيته سبباً إلى خير قط، ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذة، والسرور وانسراح الصدر وطيب العيش، لرأى أن الذي فاته منه أضعاف أضعاف ما حصل له» (روضة المحبين).

ويورد حديث النبي ﷺ عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف» (صحيح الترغيب).

اتقوا الشح!

صاحبي لا يحب السفر بالطائرة، وأنا لا أحب السفر براً؛ ذلك أن التعب والانتظار عند المراكز الحدودية، مع عدم توفر خدمات مميزة على الطريق تجعل -بالنسبة لي- كلفة السفر براً أعلى.

- لنذهب إلى البحرين ليلة واحدة، نزور (أبا ليلي).

بعد نقاش وتأكد أننا لن نواجه أي تأخير في الحدود، وأنه وسائقه سيتولى القيادة، وافقت.

انطلقنا بعد صلاة الفجر وقبل الشروق، يوم الثلاثاء، وبالفعل كانت عملية العبور إلى المملكة ثم الدخول إلى البحرين ميسرة، كما وعد صاحبي، في الطريق كان لدينا الوقت للحديث عن أمور كثيرة.

- بعض من يسافر معي براً يستكثر أن يشارك في مصاريف الرحلة، مع أنني لا أنتظر من أحد المشاركة، ولا يزيدني ولا ينقصني ذلك شيئاً، ولكن أستغرب كيف يستثقل أن يدفع ثمن وجبة غداء أو تعبئة وقود أو ثمن غرفة في استراحة على الطريق!

- ربما يظن أنه ضيف معك، وعلى المضيف أن يكرم ضيفه.

- كلا، هذا طبعه دائماً حتى وهو في البلد، يضيق صدره إذا زاره أحد، وإذا خرج لا يأخذ حافظة النقود والبطاقات معه!

- ربما يكون بخيلاً، يحب جمع المال، وربما يكون قليل المال!

- بل الأولى يا (أبا حاتم).

قالها صاحبي مبتسماً.

- إن الشح خُلِقَ رديء لا ينبغي أن يكون في المسلم؛ ففي حديث جابر بن عبد الله بن حرام - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشحّ فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» (مسلم).

قاطعني:

- وما الفرق بين الشح والبخل؟

- الشح أشد من البخل، وهو الحرص الشديد على اكتساب المال وجمعه، بينما البخل منع المال بعد الحصول عليه؛ فالبخل نتيجة للشح! وقيل: إنهما يجتمعان في المعنى إذا تفرقا ويختلفان في المعنى إذا اجتمعا، وقيل البخل منع الواجب، والشح منع حتى المستحب.

- توقفنا بعد أن دخلنا أراضي المملكة، نرتاح لوجبة الإفطار، أخذنا مكاناً مميّزاً على كثبة رملية تناثرت عليها بعض النباتات الصحراوية، توليت والسائق تهيئة المكان، بينما تولى صاحبي إعداد القهوة والشاي، تابعنا حديثنا أثناء الأكل.

- لنرجع إلى الأحاديث في ذم البخل والشح!

- نعم عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خصلتان لا يجتمعان

في مؤمن: البخل وسوء الخلق» (صحيح الترمذي)، وعن عبدالله بن عمرو قال رسول الله ﷺ: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل» (السلسلة الصحيحة).

والحديث المعروف عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «ضرب رسول الله ﷺ مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين، عليهما جُنتان من حديد، قد اضطرت أيديهما إلى ثدييهما وتراقيهما؛ فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تغشي أنامله وتعفو أثره وجعل البخيل كلما همَّ بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة مكانها، قال: فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول بإصبعه في جيبه، فلو رأيت يوسعها ولا توسع» (متفق عليه).

- أعتقد هذا الحديث يحتاج إلى توضيح.

- هو تشبيه للبخل والمتصدق برجلين ألبسا درعين من حديد من الصدر إلى أدنى الرقبة (الترقوة)، فإذا تصدق الرجل اتسع الدرع ونزل عن صدره، حتى ينزل إلى أطراف قدميه ويمحو أثر مشيه، والبخيل كلما امتنع عن البذل ضاق عليه الدرع وضيق حلقاته على صدره، ولعل التشبيه يبين أن الصدقة تشرح الصدر وتزيل الذنب، والبخل يضيق الصدر ويتعب البخيل في الدنيا والآخرة.

- ربما قرأت في بعض كتب ابن القيم -رحمه الله- أن العبد (مجبول على الشح)، وذلك -أظن- عند قول الله -تعالى-: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

- دعني أبحث لك في المكتبة الشاملة التي أحملها في هاتفي.

وفي أقل من دقيقة استخرجت ما يريد صاحبي.

قال ابن القيم: والمتصدق كلما تصدق بصدقة، انشرح لها قلبه وانفسح بها صدره؛ فهو بمنزلة اتساع تلك الجبة عليه فكلما تصدق اتسع وانفسح وانشرح وقوي فرحه وعظم سروره، ولو لم يكن في الصدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان العبد حقيقاً بالاستكثار منها والمبادرة إليها، وقد قال -تعالى-: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (التغابن)، و كان عبد الرحمن بن عوف، أو سعد بن أبي وقاص، يطوف بالبيت وليس له دأب إلا هذه الدعوة: ربِّ قني شح نفسي رب قني شح نفسي؛ فقليل له: أما تدعو بغير هذه الدعوة؟ فقال: إذا وقيت شح نفسي فقد أفلحت. (الوابل الصيب). ﴿وَيُؤَثِّرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر)؛ فالإيثار ضد الشح؛ فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه، والشحيح حريص على ما ليس بيده؛ فإذا حصل بيده شيء شح عليه وبخل بإخراجه؛ فالبخل ثمرة الشح والشح يأمر بالبخل. (مدارج السالكين).

- لقد أصبحت خبيراً في استخدام الهاتف للوصول إلى جميع الكتب،

أغبطك على ذلك؛ فأنا لا أجيد إلا استخدامه للمكالمات والرسائل!

دعني أقرأ بعض الأحاديث في هذا الباب:

عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر

الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حُجة لك أو عليك، كل الناس يغدو؛ فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» (مسلم).

وأما اقتران البرهان بالصدقة فهو أن الله -تعالى- جبل الإنسان على الشح وقال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ (المعارج)، يعني في أصل نشأته ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ (المعارج)، وقال ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ۖ﴾؛ فنسب الشح لنفس الإنسان وأصل ذلك أنه استفاد وجوده من الله؛ ففطر على الاستفادة لا على الإفادة؛ فما تعطي حقيقته أن يتصدق، فإذا تصدق كانت صدقته برهاناً على أنه قد وُقي شُح نفسه، الذي جبله الله عليه؛ فلذلك قال ﷺ: «الصدقة برهان»، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ شَحُّ هَالِعٍ وَجِبْنٌ خَالِعٍ» (صحيح الترغيب).

الجود والكرم

- من أسماء الله الحسنی (الجواد)، ودليله حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «إن الله -تعالى- جواد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها» (السلسلة الصحيحة)، وكذلك (الكریم)، كما في قوله -تعالى-: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ (الانفطار)، وغيرها من الآيات، وكذلك في الحديث عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله -عز وجل- كريم يحب الكرم ومعالي الأخلاق، ويبغض سفاسفها» (السلسلة الصحيحة).

- وما الفرق بين السخاء والجود والكرم؟

- هذه مترادفات تختلف في المعنى إذا اجتمعت، قيل: السخاء هو العطاء بعد السؤال، والجود هو عطاء من غير سؤال، والكریم يشمل العطاء وغيره؛ فهو في عموم الأخلاق وليس في العطاء فقط! كما في كتاب الله -تعالى-: ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ وَفَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (يوسف)، وكذلك: ﴿قَالَتْ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ إِيَّيَ الْفَقِي إِلَى كِنْتَبُ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ (النمل)، من ذلك يوصف الله -عز وجل- بـ(الجود) وبـ(الكرم)، ولا يوصف بـ(السخاء).

وكذلك في وصف النبي ﷺ: «كان ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان، حتى ينسلخ فيأتيه جبريل فيعرض عليه القرآن؛ فإذا لقيه جبريل -عليه السلام- كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة» (متفق عليه).

- إن حب المال غريزة عند ابن آدم؛ بل إن الله - تعالى - قرن في آيات كثيرة بين المال والنفس: ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (٤٤) (التوبة)، وآيات كثيرة مثلها، ولكن لا ينبغي أن يبلغ حب المال درجة (البخل)، وربما يزيد إلى درجة (الكنز)، ومنع الزكاة.

- إن الكرم خلق عظيم، ينبع من قلب مؤمن بالله، يحسن الظن بالله، كما قال النبي ﷺ: «والصدقة برهان» (مسلم)، والكريم يحبه أهل السماء وأهل الأرض، وأجره لا يعلمه إلا الله - عز وجل - ويبقى أثره بعد موته، ويدعو له أهل السماء وأهل الأرض. استدركت على صاحبي:

- كثير من الناس يظن أنه ليس من أهل الكرم والإنفاق، ذلك أنه لا يملك مالاً كثيراً؛ فيستصغر النفقة القليلة (الدينار) و(الدينارين) و(الخمسة)، ويظن أن الإنفاق يكون بمبالغ معتبرة، ونسي حديث النبي ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب -، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل» (صحيح الجامع).

تناول صاحبي هاتفه.

- إليك هذه الأحاديث في باب الجود والكرم:

عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس ابتاعوا أنفسكم من الله من مال الله؛ فإن بخل أحدكم أن يعطي ماله للناس فليبدأ بنفسه،

وليتصدق على نفسه، فليأكل وليكتس مما رزقه الله -عز وجل-». (السلسلة الصحيحة).

عن أبي ذر قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقول في ظل الكعبة: «هم الأخرسون ورب الكعبة، هم الأخرسون ورب الكعبة»، قلت: ما شأنني؟ أيرى في شيء؟ ما شأنني؟ فجلست إليه وهو يقول، فما استطعت أن أسكت، وتغشاني ما شاء الله، فقلت: من هم بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «الأكثرون أموالاً، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا» (البخاري).

حدثنا والله أبو ذر بالريذة، كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة المدينة عشاء استقبلنا أحد؛ فقال: «يا أبا ذر، ما أحب أن أحداً لي ذهباً يأتي علي ليلة أو ثلاثٌ عندي منه دينار، إلا أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا»، وأرانا بيده. ثم قال: «يا أبا ذر». قلت: لبيك وسعديك يا رسول الله، قال: «الأكثرون هم الأقلون إلا من قال هكذا وهكذا» (البخاري).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى بِلَالٍ وَعِنْدَهُ صَبْرَةٌ مِنْ تَمْرٍ فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا بِلَالُ؟» قَالَ: «شَيْءٌ ادْخَرْتَهُ لَعْدٍ»؛ فَقَالَ: «أَمَا تَخْشَى أَنْ تَرَى لَهُ غَدًا بَخَارًا فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ أَنْفَقَ بِلَالٌ وَلَا تَخْشَى مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا» (صححه الالباني).

وأيضا هذه مجموعة أخرى من الآيات والأحاديث المعينة على تجاوز (البخل) وحب المال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سبا)،

﴿وَلَيْسَتَعْفِيفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَّءَاتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾ (النور: ٣٣)، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٢). ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٤).

وعن عبدالله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال رسول الله ﷺ: اعلّموا أنه ليس منكم أحد إلا ومال وارثه أحب إليه من ماله، مالك ما قدمت، ومال وارثك ما أخرت» (رواه مسلم).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» (مسلم)، عن مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ (١)، قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي! (قال): وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفנית، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟» (مسلم).

ويؤثرون على أنفسهم!!

(أبو فراس).. بدأ يرتاد مسجدنا منذ شهر تقريباً.. يصلي في الصف الأول.. في الجهة اليمنى خلف الإمام... ولكنه كثيراً ما يتنازل عن مكانه لغيره ممن يأتي متأخراً!! فيبتعد أكثر عن الإمام.. قررت أن أكلمه.. في أول فرصة.. وبالفعل وبعد صلاة العشاء.. سألني عن قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) (الإسراء).

- أجبته..

- لدي ملاحظة يا أبا فراس.. رأيك أكثر من مرة تتنازل عن مكانك في الصلاة.. لغيرك.. لم أنه ملاحظتي.. قال:

- نعم.. من باب المحبة والإيثار.. (قالها مبتسماً).. ولزيادة المودة مع الإخوان.

- هذه نية طيبة.. ولكن الإيثار لا يكون في أعمال البر والتقرب إلى الله.. بل في أمور الدنيا..

استغرب صاحبي مقولتي..

- دعني أبين لك... يقول تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران)، ويقول تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة: ١٤٨)، ويقول تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ

وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضَّلَ اللَّهُ يَوْمَئِذٍ مَنِ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٣١﴾ (الحديد)،
ويقول سبحانه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (المطففين).. هذه
الآيات كلها تحثُّ على التنافس والتسابق.. في أمور الآخرة.. مغفرة الله..
الجنة. الفوز بالآخرة... إلخ

وفي الحديث.. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو
يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه
لاستهموا.. ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه...». (متفق عليه)

قاطعي:

- ذات مرة دخلت المسجد وقت أذان العصر، لم يكن المؤذن
متواجداً.. فلم يؤذن أحد.. وصلينا العصر دون أذان!!! لا أدري لم تخرجنا
جميعاً من رفع الأذان!!

- هذا يحدث في كثير من المساجد... يتحرّج الناس من رفع الأذان
والتقدم للإمامة إذا تأخر المؤذن والإمام... مع ما في هذا العمل من أجر
عظيم... لنترجع إلى موضوعنا...

- الإيثار لا يكون في أعمال... الأذان.. التبكير إلى الصلاة.. الصف
الأول.. حفظ القرآن.. الصدقات... إلخ... وإنما في نيل الدنيا.. وفي
ذلك الحديث... عندما جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني مجهود...
(ضيف متعب جائع).. فأرسل إلى بعض نسائه صلى الله عليه وسلم فقال: والذي بعثك
بالحق نبياً ما عندي إلا ماء!! ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك.. حتى

قلن كلهن مثل ذلك!!! فقال ﷺ: «من يضيف هذا الليلة رحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله.. فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته (هل عندك شيء؟) قالت: لا.. إلا قوت صبياني... فقال الأنصاري: (فعلليهم بشيء.. فإذا دخل ضيفنا فأضيئي السراج وأريه أنا نأكل فإذا أهوى ليأكل قومي إلى السراج حتى تطفئيه.. قال: فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد عجب الله من صنيعكما الليلة». (متفق عليه)

وفي الإيثار يقول الله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) إِنَّمَا نَطَعْمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ (الإنسان).

قاطعني:

- والله.. هذه أول مرة أفهم المعنى الصحيح للإيثار... لم أكن أعرف الفرق بين الحالتين!!

- كلنا نتعلم كل يوم... حتى قراءة الفاتحة... بصورة صحيحة... نتعلمها!!!

والأنصار ضربوا أروع الأمثال في الإيثار... وشهد الله لهم بذلك كما في آيات سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُجْزَوْنَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩).

في تفسير السعدي: من جملة أوصاف الأنصار الجميلة أنهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا لمحبتهم لله ولرسوله، أحبوا أحبابه، وأحبوا من نصر دينه.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾، أي: لا يحسدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله، وخصهم به من الفضائل والمناب التي هم أهلها، وهذا يدل على سلامة صدورهم، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها.

وأخبر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا.

وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها على من سواهم، الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خلق زكي، ومحبة لله تعالى مقدمة على محبة شهوات النفس ولذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه، حين أثر ضيفه بطعامه وطعام أهله وأولاده وباتوا جوعاً، والإيثار عكس الأثرة، فالإيثار محمود، والأثرة مذمومة، لأنها من خصال البخل والشح، ومن رزق الإيثار، فقد وقى شح نفسه ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩) وقاية شح النفس، يشمل وقايتها الشح، في جميع ما أمر به، فإنه إذا وقى العبد شح نفسه، سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً منقاداً،

منشراحاً بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهى الله عنه، وإن كان محبوباً للنفس، تدعو إليه، وتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز، بخلاف من لم يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير، الذي هو أصل الشر ومادته، وفي إثبات مكانة الأنصار التي تحصلوها بالإيثار أن النبي ﷺ تمنى أن يكون منهم كما في الحديث.

عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي»، كلما قال شيئاً قالوا (الله ورسوله أمن)، قال: «ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ»، قال كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمن، قال: «لو شئتم قلتم جئنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض». (متفق عليه).

إكرام الضيف

لا يكاد يمر شهر إلا ولدى صاحبي ضيف من خارج البلاد... يلزم ضيوفه أن ينزلوا عنده.. هياً مكاناً متكاملًا منعزلاً عن البيت لهذا الغرض.. إلتقيته في صلاة الظهر.. معه ضيفه سوري.. أمريكي من الناشطين في الدعوة بولاية جورجيا... وبالتحديد في العاصمة أتلانتا.. وما حولها... كنا قد اتفقنا أن يكون الغداء عندي..

بعد المقدمات.. وكان الغداء جاهزاً.. ولكن كنا ننتظر رابعنا.. (أبا عبدالرحمن).. إمام مسجد في منطقة أخرى..

- منذ تركنا (أبو ناصر).. بعد تخرجه لم نجد بديلاً مقنعاً..

كان المتحدث ضيفنا الأمريكي (أبا يوسف)..

- فقد كان الإمام في التراويح.. والقيام.. ودروس رمضان.. والدروس الأسبوعية... فضلاً عن حُسن تعامله.. ومساعدته للجميع...

- كفى مدحاً.. يا أبا يوسف.. لم أعمل إلا قدر استطاعتي.. أسأل الله القبول...

- وكل مرة تقوم بحق الضيافة.. وزيادة..

- إكرام الضيف... من الواجبات ولا مئة فيه.. كما في حيث أبي شريح خويلد بن عمرو الخزاعي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته.. قالوا: وما جائزته يا

رسول الله؟ قال: يومه وليلته.. والضيافة ثلاثة أيام.. فما كان وراء ذلك فهو صدقة». (متفق عليه)

استدرك ضيفنا معقباً مازحاً...

- إذن سأغادر إلى الفندق بعد ثلاث!!!

تابع صاحبي حديثه...

- فإكرام الضيف.. من شعب الإيمان.. وقيل أول من سنَّ إكرام الضيف نبي الله إبراهيم - عليه السلام -.. كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنكِّحُ ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ (الذاريات)، وفي سورة هود، قال تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (٦١) ﴿هود﴾.. مع أنه ﷺ لم يكن يعرفهم!! و(راغ) ذهب سريعاً وبخفية... و(قربه إليهم) ولم (يقربهم إليه).. وهذا أبلغ في تكريم الضيف أن يؤتى بالطعام... ولا يذهب إليه.. يقول الإمام ابن القيم في إجلاء الأفهام: «فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب وما عداها من التكاليف التي هي تخلف وتكلف إنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم وكفى بهذه الآداب شرفاً وفخراً».

قال علي بن الحسين (زين العابدين).. من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل عليه السلام بنفسه..

وصل (أبو عبد الرحمن)... قمت لإحضار المائدة.

- أكملوا الحديث، ثم نأكل إن شئتم.. معنى قوله ﷺ: «جائزته يوم

وليلة».. أي يكرمه ويتحفه ويحفظه يوماً... وثلاثة أيام ضيافة.. قال الخطابي: يتكلف له في اليوم الأول ما اتسع له من بر وإلطف... وأما اليوم الثاني والثالث فيقدم له ما بحضرته... الاجتهاد في اليوم الأول هو الجائزة...

وفي الحديث: «الضيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه.. قالوا: يا رسول الله.. وكيف يؤثمه؟ قال: يقيم عنده ولا شيء له يقربه به». (مسلم).. (متفق عليه).

والمعنى.. لا يحل للضيف أن يقيم عند المضيف بعد الثلاث من غير استدعاء إلا إذا أصرَّ وألحَّ عليه وطالبه بذلك.. وفي حديث عقبة بن عامر قال: «قلنا: يا رسول الله! إنك تبعثنا فنزل بقوم فلا يقروننا فما ترى؟ فقال لنا ﷺ: «إن نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا.. فإن لم يفعلوا فأخرجوا منهم حق الضيف الذي ينبغي له». (مسلم)

وحق الضيف.. إطعامه يوم وليلة.. فهو واجب إذا امتنع عنه.. أخذ منه رغماً عنه!! قيل هذا في البادية، حيث لا مكان للضيف يلجأ إليه... وقيل نسخ هذا الأمر بعد ذلك... وبقي الحث على إكرام الضيف.. ففي صحيح الجامع عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أما ضيف نزل بقوم فأصبح الضيف محروماً فله أن يأخذ بقدر قراره.. ولا حرج عليه».

- القصد هو إكرام الضيف... وفق العرف الذي في البلد وفي الزمن... وأن يشعر الضيف أنه مرحب به والمضيف سعيد بضيافته..

في شرح رياض الصالحين للحطية: فلا يحل للضيف أن يخرج من

نزل عنده، وأيضاً: لا يحل للمضيف أن يؤذي هذا الضيف، وأن يمتنع من إكرامه على قدر استطاعته.

قال الله عز وجل: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ مُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ (هود).

فالمقصود هنا من إكرام الضيف الدفاع عنه، لأن المضيف لا يسلم الضيف، ولا يؤذي الضيف، ويمنع عنه من يؤذيه، مع أنه يرى نفسه وحيداً، فلذلك قال الكلمة التي تعجب لها النبي ﷺ، قال تعالى عنه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ (هود)، كل هذا من أجل حماية الضيوف، حتى لا يتمكن منهم أولئك المجرمون.

والإنسان الكريم لا يتركه الله عز وجل أبداً، والبيت الذي يأكل فيه الضيوف ويكثر أصحابه من الصدقة إذا كان أصحابه فقراء يكرمهم الله تعالى، وإنك قد تجد الإنسان فقيراً ينزل عليه الضيف فيفرح بذلك الضيف الذي عنده، ويتكلف للضيف ويطعمه ويسقيه ويكرمه حتى يخرج من عنده وهذا الإكرام للضيف دليل على قوة الإيمان، لقوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» (البخاري، أحمد).

حُسْنُ الْعِشْرَةِ

- لا يمكن أن تصف (أبا عبد الله) إلا بأنه حَسَنُ العشرة... يألف ويؤلف.. يرد الحسنة بأحسن منها.. ولا يرد السيئة بمثلاً.. لا يشتكي من أحد.. ولا يتذمر من شيء... خير صديق في سفر.. وأفضل جليس في حضر...

هكذا وصف صاحبي (أبو أحمد)... صديقنا..

- صدقت.. كلما خالطت (أبا عبد الله) اكتشفت فيه خصلة حسنة.. في رحلتنا الأخيرة إلى مكة... كان أكثر الرفقة خدمة لنا.. مع وجود الخادم معنا.. إلا أنه كان لا يدع الخادم وحده.. يمثل حديث النبي ﷺ: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم». (البخاري)

وحديث أنس رضي الله عنه: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لشيء فعلته: لِمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله لِمَ لم تفعله». (صححه الألباني)

دعنا نقرأ شيئاً مما ورد في حُسْنِ العشرة...

كنت وصاحبي ننتظر العشاء الأخير في مكتبة المسجد..

(وأقل درجات حُسْنِ الصحبة (كف الأذى).. وهو واجب.. كما في

حديث: «المؤمن من أمنه الناس والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر سوء، والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة عبد لا يأمن جاره بوائقه». (صحيح الترغيب)

قاطعني:

- قول الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّالْقَلْبِ لَأَفْنَضُوكَ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).. فيه وصف للنبي ﷺ وأمر لأمنه من بعده... ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ﴿١١﴾ (الأحزاب).

أسف على المقاطعة... تابع حديثك... قالها معذراً بابتسامه.

تابعت قراءتي:

- وأولى الناس بحسن العشرة أقربهم.. الأبوان.. الزوجة.. الأبناء.. الأرحام.. الجيران.. الأصدقاء.. عامة المسلمين.. عامة البشر.. والحديث في الوالدين معروف.. جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك.. قال: ثم من؟ قال: أمك.. قال: ثم من؟ قال: أمك... قال: ثم من؟ قال: أبوك.. (صحيح مسلم)

.. ثم الزوجة التي قال عنها النبي ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»... (صحيح الجامع)

استدرك عليّ.. بعد أن استأذن..

- والآيات في الوالدين.. كثيرة.. ﴿وَقَصَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا
أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٣٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ
الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ (الإسراء).

أحسنت...

- وثاني درجات حُسن الصحبة... إقالة العثرات... والصفح عن
الزلات... وهذه لا بد منها... حتى تدوم العشرة... وهي مع الأقارب
أولى... وخاصة بين الأزواج... ويحتاجها الرجل أكثر من المرأة... لأن
القوامة بيده... فلا يؤاخذ المرأة على زلاتها...

وثالث الدرجات في حُسن العشرة.. الثناء والشكر على المعروف...
ذلك أن نكران الجميل يفسد المودة... والحديث في ذلك... عن أبي
سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»،
وفي رواية أخرى: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس». (صحيح أبي داوود)

والدرجة الرابعة: ألا يحسد أحداً على ما أعطاه الله عز وجل... بل
يفرح له.. ويدعو له بالخير.. وهذا الأدب يرجع على المرء بالنفع... ذلك
أنه يخلصه من الحسد... والحسد مفسدة عظيمة للدين.. كما في حديث
أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد مؤمن: الإيمان
والحسد». (صحيح النسائي).

والحديث الآخر: قال رسول الله ﷺ: «دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم:

الحسد والبغضاء هي الحالقة... لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين». (صحيح الترمذي)

- ماذا عن الحديث: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».. بحثت سريعاً.. في المكتبة الشاملة.

- ذكر الألباني هذا الحديث في السلسلة الضعيفة.. وضعيف الجامع.. تابعت قراءتي...

- ومن حُسن العشرة عدم مواجهة المخطئ مباشرة، بل التلميح والتنويه... كما كان يفعل النبي ﷺ كان إذا بلغه عن الرجل شيء: لم يقل: ما بال فلان؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟ وفي رواية عند مسلم.. رخص النبي ﷺ في أمر فتنزه عنه ناس من الناس فبلغ ذلك النبي ﷺ، فغضب حتى بان الغضب في وجهه ثم قال: «ما بال أقوام يرغبون عما رخص لي فيه؟ فوالله إني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية». (مسلم)

والحديث الآخر: «إذا أخى الرجل الرجل فليسأله عن اسمه واسم أبيه... فإنه أوصل للمودة».. وهو حديث ضعّفه الألباني في ضعيف الترمذي.. ولكن نعم أتفق معك أن معرفة الأسماء تزيد من القرب والمودة، وهذا ملاحظ ملموس في واقعنا...

ومن حُسن العشرة الدلالة على الخير... والنصح بالمعروف.. وذلك من باب حديث النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم

حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير» (صحيح النسائي)، سواء من خير الدنيا أو الآخرة.

ومن متطلبات حُسن العشرة.. إحسان الظن.. وإيجاد المخرج الحسن لكلام الإخوة.. وحمله على أفضل المعاني وأحسن النيات..

توقفت عن القراءة.. لرفع أذان العشاء...

بعد الأذان...

بدأ صاحبي الحديث:

- أظن من الأخطاء التي يقع فيها كثير من المصلين أنهم لا يعرفون أسماء بعضهم.. فقط تعرف الكنى (أبو عمر.. أبو محمد.. أبو خالد..)، ولو سألته عن الاسم.. لم يعرفه..

وهذه عادة سيئة عندنا في الكويت.. نكتفي بالكنى.. مع أن حديث النبي ﷺ: «الناس معادن كمعادن الفضة والذهب، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا، والأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». (مسلم)

السماحة

مع اقتراب شهر رمضان رافقت صاحبي إلى سوق «المباركية» ليشترى الطيب والبخور كعادته كل عام.. يتزود لنفسه وللمسجد.. تكفل لأكثر من عشر سنوات بلوازم طيب المسجد في رمضان..

- سوف نشترى من محلنا المعتاد..

وبالفعل.. رحب بنا البائع.. عرف صاحبي..

طلب منه «نصف كيلو»... لفت البائع انتباه صاحبي إلى زيادة السعر..

- لقد زادت الأسعار قليلاً.. هذا العام..

- لن أدفع أكثر مما دفعته في المرة السابقة..

- كم أخذت نصف الكيلو؟!

- دفعت خمسمائة دينار... ولن أزيد..

- أصبحت الآن ستمائة.. زادت رسوم الشحن والجمارك في بلد

المنشأ..

- هي خمسمائة.. لا غير..

أخذ صاحبي يجادل البائع... إلى أن أخذ ما أراد بالسعر الذي أراد!!

غادرنا المحل...

- هل تعرف المصطلح اللغوي لنقاشك مع البائع حول السعر؟!
 - كلا... في الكويت نسميه «مكاسرة»... «يكاسر».. في اللغة
 (مماكسة)!!!

- أول مرة أسمع هذه الكلمة...

- هي كذلك... وهي من الأمور التي تذكر في كتب الفقه... وأنها
 جائزة... ويستدلون على ذلك بحديث جابر بن عبد الله بن حرام يقول:
 كنت مع النبي ﷺ في سفر... فأعيا جملي.. فأردت أن أسببه.. فلحقني
 الرسول ﷺ ودعا له.. وضربه.. فسار سيراً لم يسر مثله من قبل.. فقال
 النبي ﷺ: «بعنيه بوقية» قلت: لا.. قال: «بعنيه بوقية. قلت: لا.. قال:
 بعنيه.. قلت: فعلت... واستثنت حملانه إلى المدينة.. فلما بلغنا
 المدينة أتيت به بالجمال.. وانتقدت ثمنه.. ثم رجعت.. فأرسل إلى رسول
 الله ﷺ فقال: «أتراني إنما ماكستك لأخذ جملك؟ خذ جملك..
 ودراهمك». (مسلم)

وفي رواية النسائي: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت مع رسول
 الله ﷺ في سفر وكنت على جمل فقال ما لك في آخر الناس، قلت: أعيا
 بعيري فأخذ بذنبه، ثم زجره، فإن كنت إنما أنا في أول الناس يهمني رأسه،
 فلما دنونا من المدينة، قال: ما فعل الجمل؟... بعنيه، قلت: لا، بل هو لك
 يا رسول الله، قال: لا، بل بعنيه، قلت: لا، بل هو لك، قال: لا، بل بعنيه،
 قد أخذته بوقية اركبه، فإذا قدمت المدينة فأتنا به فلما قدمت المدينة جئت به

فقال لبلال: يا بلال، زن له أوقية وزده قيراطاً، قلت: هذا شيء زادني رسول الله ﷺ، فلم يفارقني فجعلته في كيس فلم يزل عندي حتى جاء أهل الشام يوم الحرّة، فأخذوا منا ما أخذوا». (صحيح).

والبائع كان سمحاً معك... يبدو أنه ذو خلق ودين!!!

- نعم... أحسبه كذلك.. هو حريص على الصلاة.. وكثيراً ما يذكر لي حديث النبي ﷺ.. عن جابر رضي الله عنه: «رحم الله عبداً سمحاً، إذا باع سمحاً، وإذا اشترى، سمحاً، وإذا اقتضى سمحاً». (البخاري)

قبل أن نصل مركبتنا.. مررنا بمطعم صغير.. اقترح عليّ صاحبي أن نتناول عشاء خفيفاً... وافقت دون تردد، فقد بدرت الفكرة لي قبل أن يتكلم صاحبي!!

- إن السماحة خلق كريم.. وخاصة في موطن الشح.. في الصحيحين.. عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «اشترى رجل من رجل عقاراً، فوجد الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب، فقال للبائع.. خذ ذهبك أنا اشتريت منك الأرض، ولم أشتري الذهب... وقال الذي باع له الأرض.. إنما بعتك الأرض وما فيها... فتحاكما إلى حكيم.. فقال لهما.. ألكما ولد، قال أحدهما: نعم.. وقال الآخر: لي جارية (بنت) قال: أنكحها الغلام الجارية وأنفقا على أنفسهما منه... فقبلا!!!».

والسماحة تكون أثناء البيع.. وبعد البيع... إذا تراجع أحدهما... وفي طلب الثمن... وفي دفع الثمن...

عن ابن عمر قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فكنت على بكر صعب لعمر، فكان يغلبني فيتقدم أمام القوم فيزجره عمر ويرده ثم يتقدم فيزجره عمر ويرده فقال النبي ﷺ لعمر: «بعنيه»، قال: هو لك يا رسول الله! قال: «بعنيه»، فباعه من رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «هو لك يا عبد الله بن عمر فاصنع به ما شئت» (صحيح الإرواء)

وعن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: كان لرجل على النبي ﷺ: سن من الإبل، فجاء يتقاضاه، فقال: أعطوه، فلم يجدوا إلا سناً فوق سنه، قال: أعطوه، فقال: أوفيتني، فقال رسول الله ﷺ: «إن خياركم أحسنكم قضاء». (صحيح ابن ماجه)

- إن المرء يطلب البركة سواء كان بائعاً أو مشترياً.. والبركة لا تأتي إلا بالصدق والإخلاص كما في حديث حكيم بن حزام... قال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يفترقا، فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا.. محقت بركة بيعهما». (مسلم)

- لا شك أن المؤمن يطلب البركة في كل شؤونه... بل حتى بعد أن تتم البيعة... وأراد المشتري أن يتراجع.. فمن الكمال إقالة البيعة، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «من أقال مسلماً بيعته»، وفي رواية «عثرته»، أقال الله عثرته يوم القيامة». (صحيح ابن حبان)

في شرح رياض الصالحين: فكان البيع أمراً ضرورياً لحاجة بني آدم، ولكن من الناس من يبيع بالعدل، ومن الناس من يبيع بالظلم، ومن

الناس من يبيع بالإحسان، الناس ثلاثة أقسام، قسم يبيع بالعدل، لا يظلم ولا يُظلم. وقسم يبيع بالجور، والظلم كالغشاش والكذاب، وما أشبه ذلك، وقسم يبيع بالفضل والإحسان، فيكون سمحاً في البيع وفي الشراء إن باع لم يطلب حقه وافياً، بل ينزل من الثمن، ويمهل في القضاء، وإن اشترى لا يهمله أن يزيد عليه الثمن، ويبادر بالوفاء فيكون محسناً.

وقد دعا النبي ﷺ للمتسامحين في البيع والشراء، فقال: «رحم الله امرءاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى».

فالإنسان كلما كان أسمح في بيعه وشرائه وتأجيره واستئجاره ورهنه وارتهانه وغير ذلك، فإنه أفضل، قال الله تعالى عن شعيب إنه قال لقومه: يا قوم: «أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم»، (أوفوا المكيال) يعني: ما تبعونه كيلاً، والميزان ما تبعونه وزناً أوفوه ولا تنقصوا منه شيئاً، وهذا دليل على أن الوفاء في العقود مما جاءت به الشرائع السماوية السابقة.

- إن التجارة باب عظيم من أبواب الرزق.. فيه خير كثير لمن راقب الله فيه.. في الحديث: «عليكم بالتجارة، فإن فيها تسعة أعشار الرزق».

- قاطعت صاحبي: هذا الحديث لا يصح.. رواه سعيد بن منصور في سننه مرسلًا.. وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة.. والحديث الصحيح هو: عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة عن أبيه عن جده - رضي الله عنهما - أنه خرج مع رسول الله ﷺ إلى المصلى فرأى الناس يتبايعون، فقال: «يا

معشر التجار، فاستجابوا لرسول الله ﷺ: ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال: إن التجار يبعثون يوم القيامة فُجَّاراً إلا من اتقى الله وبر وصدق». (صحيح الترغيب)

وعن قيس بن أبي غرزة قال: كنا نُسَمَّى في عهد رسول الله ﷺ السماسرة، فمرَّ بنا رسول الله ﷺ فسمانا باسم هو أحسن منه فقال: «يا معشر التجار، إن البيع يحضره اللغو والحلف فشوبوه بالصدقة». (صحيح ابن ماجه)



جبر الخواطر

كل أحد يتعرض للحظة ضعف أو انكسار أو قلة حيلة، يحتاج فيها إلى من يواسيه، ويجبر خاطره.

- أليس الجبر نقيض الكسر؟! ومنه الجبيرة التي توضع للعظم إذا انكسر؟

- بلى، هو كذلك، و(الخاطر) هو القلب أو النفس، ولا شك أن (جبر الخواطر) أحب إلى الله من (جبر العظام)، ويكون (جبر الخواطر) بالمواساة، وإدخال السرور بالتعويض عن مفقود، أو سد حاجة، أو إعانة، أو تقوية، بكلمة طيبة، أو تذكير بآية.

صاحبي (عادل)، هيّن، ليّن، حبيب إلى القلب، لم تصدر منه كلمة أو تصرف يزعج أحداً من رواد المسجد منذ تجاوزنا لأكثر من عشرين سنة، اعتاد أن يذهب كل نهاية شهر إلى منطقة (الصليبية)، يأخذ معه مواد غذائية وأظرفاً فيها نقود يوزعها هناك على أسر محتاجة، لم يخبرني بعمله هذا ولكن سمعت من طرف ثالث.

- هل لي أن أذهب معك في زيارتك القادمة لـ(الصليبية)، استغرب معرفتي بالأمر، تابعت حديثي:

- لا تسألني كيف علمت بالأمر، ولكن لدي أموال زكاة أود توزيعها.

وبالفعل، ذهبنا؛ فوجدنا بيوتا متلاصقة، نصفها مبني بالطوب والنصف الآخر معدن رخيص، طُرقاً ترابية، أولاداً يلعبون حفاة بكرة قديمة، أدينا المهمة، في طريق عودتنا:

- هل تعلم الأجر العظيم في جبر الخواطر المكسورة؟ في حديث عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما- قال رسول الله ﷺ: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله -عز وجل-، سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ لي في حاجة، أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد -يعني مسجد النبي ﷺ في المدينة- شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجته حتى تتهيا له أثبت الله قدمه (على الصراط) يوم تزل الأقدام» (صحيح الترغيب).

- هذا من فضل الله علي، وهو خلق اكتسبته من والدي -رحمه الله- كنت أراه يسعى على الفقراء والأرامل، ولم يكن كثير مال؛ فكان يأخذ من مؤونتنا المنزلية ويوزعها على من يعرف من المحتاجين، وإذا طرق أحد باب منزلنا، لا يتركه حتى يقضي حاجته ما استطاع، ولو بكلمة طيبة، كان دائماً يردد قول الله -تعالى-: ﴿وَأَمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ أُبَتَّعَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ (الإسراء).

يقول والدي -رحمه الله- هذه تعاليم الله -عز وجل- لرسوله ﷺ،

إن لم يكن لديك ما تعطيهم فقل لهم قولاً لطيفاً برفق ووعد بالجميل عند سنوح الفرصة، واعتذر عن عدم تمكنك من مساعدتهم في الوقت الحاضر، لتجبر خواطرهم!

أعجبني تخلقه الجميل بأخلاق والده.

- رحم الله والدك، لقد غرس فيك خلقاً جميلاً، وبهذا أمر الله - عز وجل - رسوله ﷺ في سورة الضحى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

قال ابن قدامة - رحمه الله -: «وكان من توجيهات ربنا - سبحانه وتعالى - لنبيه ﷺ، فكما كنت يتيماً يا محمد ﷺ فأواك الله، فلا تقهر اليتيم، ولا تذله، بل طيب خاطره، وأحسن إليه، وتلطف به، واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك؛ فنهى الله عن نهر السائل وتقريعه؛ بل أمر بالتلطف معه، وتطبيب خاطره، لا يذوق ذل النهر مع ذل السؤال» (تفسير ابن كثير)، ﴿وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾.

فانظر روعة العطاء المستمر في هذه الآية حتى يصل بالمسلم لحال الرضا؛ فهذه الآية رسالة إلى مهموم ومغموم، وتسلية لصاحب الحاجة، وفرج لكل من وقع ببلاء وفتنة، أن الله يجبر كل قلب لجأ إليه بصدق،

ويجبر الله كل الخلق، ويجبر من يدعوه باستجابة الدعاء وكشف الضر؛ كما قال - تعالى -: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَّرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ ﴾ (النمل).

- نعم، إن الله يجبر خاطر من لجأ إليه بصدق؛ فمن معاني اسم الله (الجبار)، (جبر الرحمة) فهو - عز وجل - يجبر خاطر المنكسرين؛ فللعبد أن يدعوه - سبحانه - (يا جبار.. اجبر كسري)، فهو ملجأ الضعفاء والمنكسرين والمظلومين - سبحانه -. كان صاحبي هو الذي يتولى القيادة.

- دعني أقرأ لك ما ورد في تفسير السعدي لآيات سورة (الضحى): ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ (٦) أي: وجدك لا أم لك، ولا أب، بل قدمات أبوه وأمه وهو لا يدبر نفسه، فأواه الله، وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفَّله الله عمه أبا طالب، حتى أيده بنصره وبالمؤمنين.

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ (٧) أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق.

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا ﴾ أي: فقيرًا ﴿ فَأَغْنَى ﴾ (٨) بما فتح الله عليك من البلدان، التي جُبيت لك أموالها وخراجها.

فالذي أزال عنك هذه النقائص، سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلى الغنى، وآواك ونصرك وهداك، قابل نعمته بالشكران.

ولهذا قال: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ (٩) أي: لا تسئ معاملته اليتيم، ولا

يضق صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه ما تيسر، واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ١٠ أي: لا يصدر منك إلى السائل كلام يقتضي رده عن مطلوبه، بنهر وشراسة خلق، بل أعطه ما تيسر عندك أو رده بمعروف وإحسان.

القناعة

في سبورة بيضاء على الحائط الأيمن من مسجدنا.. يكتب إمامنا حديثاً كل أسبوع.. يختار الأحاديث بعناية حتى يستفيد منها المصلون.. بعد صلاة الظهر كل يوم سبت.

- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه». (مسلم)

حديث قصير.. جميل.. من جوامع الكلم.. فيه فوائد عظيمة لمن عمل به.. كنت وصاحبي في طريقنا لبارك لأحد رواد مسجدنا زواج ابنه في صلاة (الميلم) بمنطقة العديلية.

- أحسن إمامنا باختياره.. كالعادة... (قد أفلح).. كما قال الله عز وجل:
﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ (المؤمنون)، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝١٤﴾ (الأعلى)،
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩﴾ (الشمس)، بصيغة التأكيد بـ (قد).. و(أفلح)..
فاز.. وسعد.. ونجح.. أدرك الخير.. وسبيل الفلاح هنا.. (أسلم).. (رزق كفافاً).. (القناعة)!!

- نعم، لا شك أن (الرضا والقناعة).. رزق عظيم لمن سأل الله ذلك ووفقه الله لهما... يعيش مرتاح البال.. سليم القلب... مطمئن الحال..

- هذه أخلاق يكتسبها المرء بتربية النفس... والدعاء... ويبدأ بالعقيدة... كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم... عن حذيفة رضي الله عنه:

«هلموا إليّ... فأقبلوا فجلسوا إليه.. فقال ﷺ: «هذا رسول رب العالمين جبريل نفث في روعي: أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، وإن أبطأ عليها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية الله.. فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته». (صحيح الترغيب)

كانت الطريق سالكة... وفق الخرائط العالمية المسافة تحتاج عشرين دقيقة..

- نعم... إذا وصل العبد إلى إيمان راسخ بأن رزقه مكتوب.. قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة!! فإنه لا يجزع.. بل يقنع - ويعلم أنه بسعيه سينال ما كتب له.. فلا يمد يده إلى حرام لزيادة رزقه!!! بل يكون غنياً.. بما عنده كما في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ، ولكن الغنى غنى النفس». (متفق عليه)

- لنبحث عن (القناعة) لغة...

- لك ذلك.. اسمع يا (أبا أحمد)...

قال ابن فارس: «قَنَع قناعة: إذا رضي وسميت قناعة، لأنه يقبل على الشيء الذي له راضياً».

وأما القناعة: فهي في اللغة: الرضا بالقسم.

الماوردي: «والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يقتنع بالبلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه، وهذا أعلى منازل أهل القناعة، ثم ذكر قول مالك ابن دينار: «أزهد الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بلغته».

الوجه الثاني: أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية، ويحذف الفضول والزيادة، وهذا أوسط حال المقتنع، وذكر فيه قول بعضهم: «من رضي بالمقدور قنع بالميسور».

الوجه الثالث: أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف على ما سنع، فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيراً، ولا يطلب ما تعذر وإن كان يسيراً، وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل)، فسّر الحياة الطيبة علي وابن عباس والحسن - رضي الله عنهم - فقالوا: «الحياة الطيبة هي القناعة»، وفي هذا المعنى قال ابن الجوزي - رحمه الله تعالى - : «من قنع طاب عيشه، ومن طمع طال طيشه».

توقفت حركة المرور فجأة.. أمامنا.. حاولنا تفادي المركبة بالانتقال إلى الحارة اليمنى... ولكن - للأسف - لم نتمكن... صدمنا المركبة.. تراجنا لتفقد الأضرار.. اضطررنا لانتظار دورية المرور.. انتهى الموضوع... بعد نصف ساعة... أكملنا طريقنا لبارك لأخينا... في طريق عودتنا... وقد هدأت الأنفوس... وذهب أثر الحادث المروري...

- دعني أقرأ لك بعض ما ورد في القناعة...

نظر إليّ صاحبي... دون أن يعلّق.. قرأت له من هاتفي...

يقول عامر بن عبد قيس... «أربع آيات من كتاب الله إذا تلوتهنّ مساء لم أبال على ما أمسي، وإذا تلوتهن صباحاً لم أبال على ما أصبح: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ (فاطر)، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ (يونس)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾﴾ (هود)، وقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ (الطلاق).

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «اللهم قنّني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف على كل غائبة لي بخير». (صحيح المستدرک)

ولأجل قناعته ﷺ فإنه ما كان يسأل ربه إلا الكفاف من العيش، كما قال ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً». (صحيح ابن ماجه)

قال بعض البلغاء إذا طلبت العزّ فاطلبه بالطاعة، وإذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فمن أطاع الله - عز وجل - نصره، ومن لزم القناعة زال فقره، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «من يأخذ مني هذه

الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن»، فقال أبو هريرة رضي الله عنه قلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي وعد خمساً قال: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب». (صحيح الترغيب)

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
٩	مكارم الأخلاق (١)
١٣	مكارم الأخلاق (٢)
١٧	مكارم الأخلاق (٣)
٢١	صدق الحديث
٢٦	أداء الأمانة
٣٠	الوفاء بالعهد
٣٤	الحياء
٣٩	الصبر
٤٤	الرجوع إلى الحق
٤٩	التواضع
٥٤	قضاء حاجات الناس
٥٨	إشفعوا.. تؤجروا
٦٤	فنظرة إلى ميسرة

٦٨	أحبَّ لأخيك ما تحب لنفسك
٧٢	إصلاح ذات البين
٧٧	نصرة المظلوم
٨٢	أُستر تُستر
٨٧	شكر الناس
٩٢	النُّصح لكل مسلم
٩٨	التغافل
١٠٣	وأعرض عن الجاهلين
١٠٩	والكاظمين الغيظ
١١٤	والعافين عن الناس
١١٨	ادفع بالتي هي أحسن
١٢٤	كفّ الأذى
١٢٩	لا تغضب
١٣٤	ولا تجسسوا
١٣٩	الاستئذان
١٤٤	غضُّ البصر

١٤٩	ترك الجدال
١٥٤	فليقل خيراً.. أو ليصمت
١٥٩	بذل السلام
١٦٣	طيب الكلام
١٦٨	الرفق
١٧٤	يرحم صغيرنا.. ويوقر كبيرنا
١٧٩	توقير العلماء
١٨٤	العفة - العفاف
١٨٩	اتقوا الشُّح
١٩٤	الجُود والكرم
١٩٨	ويؤثرون على أنفسهم
٢٠٣	إكرام الضيف
٢٠٧	حُسن العشرة
٢١٢	السماحة
٢١٨	جبر الخواطر
٢٢٣	القناعة

الحمد لله رب العالمين